اقرأ

حسن محمود

أجواء

دار المعارف بمصر

أجواء

حسن محمود

أجواء

اقرأ ١٥٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٥٩ – مارس سنة ١٩٥٦

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

أجـــواء

١

كانت تشعر بأنها لا تعرف غير جانب من حى الزمالك . فهى إذا رجعت بالفكر إلى حياتها ، وهى فتاة صغيرة ، وجدت أنها لا تعرف غير هذه الدار الواقعة فى شارع سير أرثر هنتلى القريبة من مدرسة الفنون الجميلة . وهى دار يطلق عليها هذا الاسم تواضعاً ؛ فهى فى الحقيقة قصر جميل تحيط به حديقة كبيرة فيها الكثير من أنواع الزهر النادر ، وفيها بعض بعض الأشجار الباسقة . ويسود هذه الدار سكون وكأن ساكنيها لا يعرفون معنى لضجيج الحياة . وكانت هى تجد فيها الترف فى كل شىء ، ولقد ألفت هذا الترف منذ صباها الأول فهو أمر عادى لديها ، وهى لا تتوقع أن يكون الناس فى عيشة أقل من هذه العيشة .

ومع ذلك لم تولد رئيفة فى حى الزمالك . وهى إذا أجهدت الذاكرة قليلا فكرت فى منزل قديم فى حى نسيته الذاكرة ، منزل كبير ولكنه مظلم وقديم . ولو أتعبت الذاكرة قليلا

لعادت بها إلى تلك الأيام ، التى كانت تعتريها وحشة إذا ما وجدت نفسها وحيدة فى سلم ذلك البيت القديم المظلم ، أو فى غرفة من غرفه الواسعة ، فيغلبها البكاء . وعرف فيها أبواها هذا الخوف فجاءا بغلام صغير ليكون تابعاً لها ومصباحاً كى لا تشعر بهذا الخوف .

لو أتعبت الذاكرة قليلا لعادت بها الفكرة إلى ذلك الماضى البعيد ، ولكنها تفضل ألا تبعد بالذاكرة إلى تلك الأيام ؛ لأنها تجد فيها أيام بؤس وشقاء . لا لأن الأسرة كانت فى بؤس ، بل لأنها لم تكن فى المستوى الذى تعيش فيه رئيفة الآن . لذلك تفضل رئيفة أن تعتبر نفسها ناشئة فى حى الزمالك الذى عرفته وهى فى السابعة من عمرها ، وتحب أن يفهم عنها أصدقاؤها أنها ولدت فيه .

وهى تحب أن يعتقد الأصدقاء أن أباها كان فى مرتبة الباشا منذ مولدها ، وأن جدها كان باشا أيضاً .

ومع ذلك لم تكن رئيفة فى هذا التفكير متجنية ؛ فإن جدها كان باشا حقيقة ، ولكنه كان يسكن الدار التى ورثها من أجداده فى سوق السلاح عند ما كان هذا الحى موئلا للعظماء . وليس يضير والدها أنه حصل على هذه المرتبة بعد خدمة للدولة ليست بالقصيرة ؛ فلعله لم يكن يحصل على هذه

المرتبة إذا لم يكن أبوه قد حصل عليها من قبل . ولو كانت رئيفة منصفة لنفسها لما وجدت فى ذلك غضاضة ، ولفضلت أن تكون الأمور سائرة كما هى سائرة معها . فكل ما حدث من تغير أن أباها فضل طريقة الحياة الحديثة ورخاءها على طريقة الحياة القديمة فى المنزل القديم ، وفضل اللذة فى جمال الدار ورياشها ومحتوياتها من زخارف وتحف وصور ، والتمتع بهذه اللذة العقلية التى تتولد من اقتناء هذه الأشياء ، على اللذة فى الطعام وألوانه وكثرة الخيرات التى كانت تتدفق فى المنزل القديم .

فكل ما حدث من تغير هو تفضيل نوع من الرخاء على نوع آخر . ولكن رئيفة التى عرفت الدار الفخمة فى شارع سير هنتلى منذ السابعة من عمرها ، فضلت هذا النوع من الرخاء الذى تعيش فيه ، وفضلت أن تنسى ذلك الماضى الذى كانت تعتبره نوعاً من الشقاء .

وقد اختار لها والدها هذه الحياة هى وشقيقتيها اللتين يصغرانها سنًّا . وعول على تربيتهن تربية حديثة تتناسب مع تربية البنات من طبقتهن فى هذه الحياة الجديدة .

لذلك وجدت رئيفة نفسها فى مدرسة أمريكية للبنات ، ثم بكلية البنات الأمريكية . وكانت رئيفة تذهب إلى تلك

المدرسة البعيدة عن الحى فى إحدى السيارتين الفخمتين اللتين يقتنيهما أبوها . فهو منذ صارت بناته فى سن تقتضى الذهاب إلى المدرسة وضع تحت تصرفهن سيارة من سيارتيه ، وهى التى تستعملها زوجته فى زياراتها . فصار عمل السيارة الأول هو نقل البنات إلى المدرسة والعودة بهن .

ورأى الباشا أن ينزل عن سائق سيارته الكهل المجرب ، وهو رجل نوبى يعرف فيه الباشا نوعاً من الحصافة والكثير من الأمانة وإن كان الباشا يأخذ عليه أنه لا يعنى بثيابه . ولقد صنع له زيًّا خاصًّا ، ولكن هذا الزى لم يلق عناية من لابسه ، ولعله كان غير جدير بهذا الزى الجميل .

لذلك انتهز الباشا هذه الفرصة ليتخلص من هذا السائق القديم المجرب وخصصه لسيارة بناته ، وأتى لنفسه بسائق آخر شاب جميل الصورة يبدو فى منظره كأحد أبناء الأوربيين ، وألبسه زيه الخاص ؛ فكان السائق والسيارة مطمحاً لأنظار الناس عامة وموضعاً لحسد أهل طبقته .

وكان الباشا فى الوقت نفسه قد اطمأن لهذا التغيير ، لأنه يعرف فى سائقه القديم شدة التعلق بالأسرة ، وأنه سيرعى بناته كما يود الباشا أن يرعين فى غيبته .

والواقع أن بنات الباشا لم يكن بحاجة إلى الرعاية ، وبخاصة

رئيفة فهى منذ شبت وكبرت تظهر عقـــلا واتزاناً أكثر من سنها ، و زادتها الثقافة التى تلقتها على يد معلماتها الأمريكيات عقلا واتزانا .

فكانت رئيفة تشغل مكانها إلى جانب والدتها فى هدوء وثقة بالنفس ، وكلما كبرت زادت رزانتها وتقديرها للأمور .

ولعل الشىء الوحيد الذى يؤخذ عليها هو ميلها أحياناً إلى العزلة وانقطاعها إلى التفكير وكأنها حينئذ تسبح فى عالم من الأحلام .

٢

بلغت رئيفة السادسة عشرة من عمرها حين نالت الشهادة النهائية لكلية البنات الأمريكية ، وانقطعت عن الدراسة ، ولكن صلاتها بفتيات الطبقة العليا اللاتى كن زميلات لها فى الكلية ظلت متصلة ، وكذلك بمعلماتها اللاتى يقبلن على زيارتها بين وقت وآخر ، وكانت تزورهن أحياناً فى دار الكلية . وصارت رئيفة الآن تقضى وقتها بصحبة والدتها ، فتخرج معها فى الزيارات العديدة للحوانيت ؛ إذ كانت الأسرة دائماً فى حاجة لشراء شىء جديد ، أو قل إن الحياة التى تعيش فيها الأسرة هى التى تنشئ هذه الحاجة إلى الشىء الجديد . ثم تزور رئيفة بصحبة والدتها مئات من الأسر التى يقضى مركز أبيها

بالاتصال بهن . وتقضى وقتاً فى استقبال أفراد هذه الأسر التى تتوافد إلى دارها فى آصال الكثير من الأيام .

وكانت إذا ما لزمت المنزل أنفقت الصباح فى الإشراف على تنظيمه وفى الأصيل تستعد لاستقبال الوافدات على الدار من بنات تلك الأسر . وأحياناً تجلس إلى البيانو لتعزف قطعاً مما تعلمته فى الكلية . ولقد أتقنت الموسيقى إلى حد كبير ، وبرعت فى العزف على البيانو ، غير أن ذوقها الفنى لم يكن رفيعاً . فهى تعزف بعض ليالى شوبان ولكنها قد تعزف إلى جانبها فاتحة مسرحية حلاق إشبيلية لروسينى ، وقد تفضل القطعة الثانية على الأولى ؛ لأنها تشعر بأنها أكثر إتقاناً لها . ولأنها تجد إعجاباً من المنصتات حين تعزف هذه القطعة الثانية . وكانت تعتبر ما تعلمته من الموسيقى تكملة لثقافتها لا جزءاً أساسيًّا منها .

وهذا شأنها فيما يتعلق بدراساتها فى الأدب الإنجليزى ؛ فهى مع ما أظهرته فى الكلية من اهتمام بالدراسة وتفوق ، صارت حين انقطعت إلى الدار ، تقبل على قراءة القصص وتختار منها ما لا يحتاج إلى تفكير عميق ، أو على الأصح ما لا يحتاج إلى تفكير مطلقاً ، بل قد يكون وضع للتسلية . فهى لم تنقطع عن القراءة ، ولكنها لم تقبل إلا على نوع

خاص منها لا يزعج خاطرها ولا يشغل تفكيرها ؛ فهى ترى أن هذه القراءة زينة تتحلى بها ، وتدل على ثقافتها ، لا جزء أساسى من هذه الثقافة .

وأكبر ما تهتم به رئيفة هندامها . فهى تحب دائماً أن تظهر فى ثياب أنيقة ، وتقضى الساعات الطويلة فى اختيار الملابس ، والساعات الطويلة فى التردد على الخياطة كى تعنى بهذه الملابس ، والساعات الطويلة فى ارتداء هذه الملابس والتأكد من ملاءمتها والظهور فيها بمظهر أنيق .

وتصفيف الشعر أيضاً كان جزءاً هاماً من عملها . فالشعر يجب أن يزيد من بهاء الثياب ويظهرها فى خير مظهر .

لم تكن رئيفة تعنى بذلك عن كبرياء وتيه ، وإنما ترى أن العناية بالمظهر هو أساس حياتها وحياة طبقتها . ولا تشك أنها درجت على ذلك ؛ لأن والدتها تنفق أكثر الوقت فى هذا العمل والتردد كل يوم تقريباً على الحوانيت المختلفة . فهذا العمل إذن هو أساس الحياة التى تحياها .

ولم تكن هذه الحياة التى تحياها رئيفة بعد أن تركت الكلية مملة لها . فالواقع أن فيها تنوعاً كبيراً ؛ إذ كثيراً ما تدعى مع أسرتها إلى حفلات مختلفة تقام فى الدور والقصور الفخمة لمعارف الأسرة . وكانت الأسرة كثيراً ما تقيم حفلات للأسر

الأخرى ، وفى كل حفلة تتفنن ليكون طابع الحفلة جديداً مختلفاً إن أمكن فى كل مرة .

فإذا لم تكن ذاهبة إلى حفلة مع والدتها وأختيها ، فإن الأسرة تذهب إلى السينما ، وهى الوسيلة المفضلة لدى الأسرة للتسلية . وكانت الأسرة تذهب أحياناً فى الموسم إلى الأوبرا . ولم تكن رئيفة كثيرة التعلق بحضور هذه المسرحيات الموسيقية ، وإنما تفعل ذلك رغبة فى أن ترى أترابها . وقليلا ما كانت رئيفة تذهب مع أختيها لحفلات موسيقية تسمع فيها بعض مشاهير العازفين أو بعض الجوقات الموسيقية الأوربية التى تفد على القاهرة فى موسم الشتاء . وفى هذه الحفلات تتخلف الأم عن الذهاب وتستصحب الفتيات عادة إحدى المعلمات الأمريكيات لأنهن فى الواقع لم يكن يشعرن بتسلية حقيقية . ولو تركن إلى أنفسهن لما اخترن الذهاب ، ولكنهن يجدن من معلماتهن حماسة ، فيظهرن مثل هذه الحماسة مجاراة لهن ، وإظهاراً لثمرة الثقافة التى تثقفن بها .

وهكذا تمضى الأيام لدى رئيفة ، هى أيام كثيرة المشاغل ولكنها تعنى بأمور غير ما يعنى به الفقراء . فليس من شأنها الاهتمام بالطعام إلا إذا كانت هنالك حفلة ؛ إذ الاهتمام بالطعام عمل مادى سخيف ، ويكفى أن يعرض أمره

على سيدة تركية كبيرة ، كانت مدبرة المنزل ، فهى التى تهتم بهذه الأمور ، وهى التى تستأذن ربة البيت بصفة عامة ، وتعرض عليها فى سرعة هذه الأمور ، إذا لم تجدها مشغولة بأشياء أخرى .

كانت هذه الحياة التى تدور فيها رئيفة تجعلها بمعزل عن والدها تقريباً . فالوالد له من عمله اليومى فى مركزه الكبير شاغل ، وله من اتصالاته العديدة شاغل عن الدار . وكان لا يستطيع الذهاب مع أسرته إلى دور السينما إلا نادرا . وإذا وجد وقتاً يذهب إلى نادى محمد على للاجتماع بزملائه فى المركز الذى يشغله ، ولكنه كان مع ذلك يسترق من وقته ما يستطيع ليشارك أسرته فى طعام الغذاء ، وأحياناً بل أحياناً كثيرة لا يستطيع .

ومع ذلك كان يشارك الأسرة فى الحفلات التى تقيمها لا سيما إذا كانت المدعوات والمدعوون من زملائه ، وحينئذ يقوم حقا بدور المضيف فى ثيابه الأنيقة ، وفى عنايته بتفصيلات الحفلة ، وفى نظرته الفاحصة ، وعمله لأن يهيئ لكل مدعو أقصى الراحة والتنعم .

مرت سنة وسنة على رئيفة وهى فى هذه الحال . وكانت رئيفة لا تنتظر تغيير هذه الحياة ولا تتصور تغييرها . ولكن

والدتها كانت تنتظر يوماً يقترب سريعاً ، ترى فيه فتاتها وقد تغيرت حياتها . فالأم تشعر بأن مصير الفتاة أن تكون زوجة . وإذا كانت رئيفة فى هذا الرخاء الذى تجده فى دار أبيها لا تلتفت إلى هذا الجانب من الحياة ، فالأم تشعر بأن ابنتها سوف تفارقها إن عاجلا أو آجلا . والأم مهما شعرت بأن ابنتها فى غنى عن الزوج ، فهى ترغب فى أن ترى ابنتها زوجة فى القريب العاجل بقدر الإمكان ، حتى تكون على ثقة من استقرار حياة ابنتها . ولا شك فى أن ابنتها فى مأمن من عوادى الزمن ، فالخوف هنا لا محل له ، ولكنها شفقة الأم التى تدفع هذه الأم الرحيمة إلى الشعور بمثل هذه الرغبة ، فهى ترجو أن توفق ابنتها للزوج الصالح .

٣

أما الباشا فكان على ما يظهر لا يفكر كثيراً فى زواج فتاته ، وكان فخوراً بمركزه العالى فى الدولة ، يعلم أو يعتقد أن العشرات من الشبان يطمحون إلى الزواج من ابنته ، وأن ليس أمامه إلا أن يوفق فى الاختيار بينهم . فأمر زواجها إذن موكول لاختياره ورغبته ، وهو لا يستعجل هذا الأمر ؛ فقد كان على كثرة تغيبه عن منزله يحب بناته حباً كبيراً ، وهو

لا يخلو من أنانية الوالد الذى يحب فى الساعات القليلة التى يقضيها مع أسرته أن يكون محاطاً بزوجته وبناته ، يعنين به ويسهرن على راحته . وهو يرى بناته زينة لهذه الدار . وكان يشعر بسرور داخلى حين يكون لدى الأسرة بعض المدعوين والمدعوات ، فيجد هؤلاء البنات وقد قمن بدورهن فى العناية بالضيوف . ولم يكن يتصور ، مع قلة حاجة الدار لغير النوم فى الأيام العادية ، أن يعود إلى الدار فيجدها خالية إلا من زوجه ومن خدمه .

ربما كان فى غفلة عن مرور الزمن بما حوله من ضجيج وزحام بسبب مركزه فى الدولة ، فهو لا يكاد فى صباح يومه يفرغ من مقابلة العظماء الذين يقصدونه إما للتودد إليه وإما لحاجة ينشدونها . ولم يكن مساء يومه بأقل شغلا بالدعوات والحفلات الاجتماعية التى يضطر لحضور جانب كبير منها . فإذا انتهى من هذه الحفلات ذهب إلى النادى فى مسائه كى يتشاور مع أقرانه وكى يحتفظ بمركزه بينهم . فهذه الحياة الصاخبة تبعده عن أن يفكر فى الفتيات وفى حياتهن المستقبلة . فالوقت أمامه فسيح ، والحياة الزاهرة أمامه واسعة . وهو كلما تريث يجد الكفء للزواج من فتياته إن لم يجد من يكون ذا مركز اجتماعى كبير .

وكان فى أعماق نفسه يطمح إلى أن يزوج فتاته من أحد الشبان الذين يمتون إلى الأمـــراء بنسب ، وهو مطمح يبدو عسيراً ، ولكنه فى المركز الذى يشغله ليس بمستبعد كثيراً .

ولم يكن الباشا يطمع فى مال فهو يجد منه ما يكفيه . ولم يكن فى الحقيقة من الذين يحسبون للمال حساباً ، ولا يعرف المال إلا على أنه وسيلة للإنفاق والتمتع ، وإشباع الرغبة فى العيش عيشة رغيدة . وكانت موارده الخاصة من المال مع راتبه تكفيه لهذه الحياة التى يرى فيها المتعة ويرى فى صخبها العمل .

والحقيقة أنه لم يكن يعنى بتدبير أمواله إلا قليلا ؛ فهو يكل أمرها لوكيل خاص له أحياناً ، ولسكرتيره أحياناً أخرى . ولم يكن يعرف قط إلا أنه يجد المال حين يريده .

ولم تكن للباشا نقائص كبيرة بل كان يحيا الحياة التى يحياهـــا من فى طبقته . فهى النـــادى يلعب الميسر ، ولكنه لا يعكف عليه طويلا . وخســـارته تكون عـــادة محتملة . وكان غـــير مفرط فى الشراب ، قد يتنـــاول شيئاً منه ، ولكنه لا يقبل عليه فى نهم . وكان بالطبيعة يحب الأنواع الممتازة ، ولا يكثر منهـــا . ويمنعه من الإكثار من الشراب ، كما يفعل بعض زملائه فى النادى ، نوع من التحشم والاعتداد بالنفس . فهو لا يرغب فى أن يبدو ثملا ولو بين أقـــرانه .

وكان يلاحظ أن الزملاء الذين يكثرون من الشراب فى النادى يكونون موضوع حديث أقرانهم فيما وراء ظهورهم ، وإن كانوا يقبلون على الشراب ظنا منهم أن النادى هو أقرب الأمكنة الاجتماعية إلى دورهم الخاصة . فكان لذلك يترفع من أن يقف هذا الموقف .

وكان الباشا بطبيعته سخيا على خدمه ومن يتصلون به من أتباعه . وهو وإن صعب الوصول إليه ، كانت مقابلته للناس ظريفة رقيقة .

وكان على قلة مقابلته لزوجته وفتياته كثير التفكير فيهن فإذا سمع عن حفلة جديدة أو ملهى جديد أسرع بشراء تذاكر لهن كى يذهبن للفرجة ، وإذا افتتح معرض أسرع إلى التليفون ينبئهن بأمره ويحثهن على زيارته وإن لم يشاركهن فى هذه الزيارة .

وكان هنالك أمر واحد لا يستطيعه الباشا كثيراً هو السفر إلى الخارج فى الصيف . ولذلك كان فى كل صيف ومن أوائل الموسم فى مايو يستأجر داراً كبيرة فى رمل الإسكندرية ، فتنتقل الأسرة إلى تلك الدار . ويظل هو فى القاهرة إلا أنه يقضى آخر الأسبوع فى الإسكندرية بين أسرته التى تتمتع بسائر وسائل التسلية المتوافرة فى شواطىء البحر بتلك المدينة الجميلة .

وحدث فى سنوات عدة أن استطاع الباشا الانقطاع عن عمله مدة شهرين ، فكانت الأسرة تسافر فى الحال إلى أوربا وتتنقل فى ربوع فرنسا وإيطاليا وسويسرا ثم تعود محملة بالملابس والحلى الفخمة الجديدة من أحدث الأزياء .

أما فى الشتاء فكان حى الزمالك ودارهم الفخمة مفضلة لدى الأسرة . غير أن الأسرة تحاول فى الأعياد أن تذهب إلى جهة من الجهات ، اتقاء للزيارات التى لا ترغب فيها والتى هى مجرد مجاملة لا معنى لها ، ينفق فيها الأتباع أعيادهم فى المرور على دور مهجورة من العظماء ، بدلا من أن يقضوا هذه الفترة فى الراحة والتنعم بمعاشرة أولادهم .

فكان الباشا يذهب بأسرته إما إلى فندق مينا هاوس حيث يتمتع بالجو الصحراوى الذى يحيط بتلك الأهرام الخالدة ، وإما إلى الأقصر أو أسوان إذا كان فى الوقت فسحة لقضاء أسبوع .

وهكذا تمر به الحياة هينة لينة وتمر به سريعة لا يكاد يشعر بمرورها .

٤

على أن للأقدار أحياناً مزاحاً ثقيلا مع بنى البشر ، وقد

يصل هذا المزاح إلى درجة كبيرة من القسوة مع الذين يطمئنون إلى هذه الأقدار ، والذين يركنون إلى الدعة حتى ينسوا وجودها . فكأنها تحب أن توقظهم من غفلتهم وتنبههم إلى سيطرتها على حياتهم فى شدة قد تبلغ درجة المأساة .

وعصفت الأقدار بالباشا ، فإذا به بين يوم وليلة يجد نفسه فى مشكلة لا يعلم كيف ثارت ، وإنما يعلم أنه حل به غضب الذين يسيطرون على حياته العملية ، ولم تمض أيام حتى عزل من عمله ، أو اضطر للتنحى عنه ، ولزم داره . وكان يتجلد أمام أسرته ذاكراً لهم أنه صار أقرب إليهم وأشد اتصالا بهم ؛ إذ لديه الوقت الذى ينفقه بجوارهم . ولكنه اكتشف حقيقة هى أنه فى حاجة إلى المركز الذى يشغله وراتبه الكبير ، وأن الراتب الذى يتناوله أجراً على خدمته الماضية فى الدولة لا يكاد ينفعه كثيراً . واكتشف أكثر من ذلك أنه فى سبيل المظهر قد حمل أملاكه التى لم تكن كبيرة ، ديوناً عليه أن يفى بها للمصارف التى تقرضه المال ، وأن فائدة هذه الديون تكاد تستغرق الإيراد الذى يأتى من هذه الأموال ، أو هى لا تترك له من الإيراد إلا قليلا . ولو أراد قضاء الديون لاستغرق ذلك أكثر أملاكه إن لم يكن كلها .

فلم يلبث أن أثر انقطاعه عن العمل فى نفسه ، ومع

ذلك كان يتجلد أمام أسرته ، وقد عول على أن يستمر محافظاً على ما له من مظهر حين كان يشـــغل ذلك المركز الرفيع فى الدولة ، وعول على ألا ينقص أسرته شيئاً مما اعتادته ، فيجب أن تبقى لها حفلاتها ، ويجب أن تبقى لها سياراتها وخدمها وثيابها ، ولا يحاول أن يغير من ذلك شيئاً أو يقتصد شيئاً .

وبدأ يشعر شعور الرجل الذى لا يحسن السباحة واجتذبه تيار الماء إلى مكان عميق من البحر ، فهو يحاول أن تصل قدمه إلى الأرض ليشعر بالأمن ولكن عبثاً يحاول ، وهو يحاول أن يخرج عن سطوة التيار ولكنه عبثاً يفعل . وكان قبل ذلك فى مثل هذه الحالة ، ولكنها كانت حالة بطيئة لا يكاد يشعر بها وسط أبهة المركز وضجيج الصحاب والملتفين من حوله . أما الآن وقد خلا إلى نفسه وقلت موارده فهو يشعر بقرب الكارثة ويحاول أن يتخلص من وطأتها ولكنه لا يعرف كيف يتخلص .

ولو أنه أخذ الأمور بالحزم لأمكنه وقف هذه الكارثة . ولو أنه أطلع امرأته على حاله لكان مجهودهما معاً كفيلا برد الأمور إلى مجراها الطبيعى ، ولكانا يستطيعان الاحتفاظ بكثير من وسائل الرخاء ؛ إذ الدار دارهما والرياش ملك لهما ، دون أن تسير الأمور قدماً إلى الكارثة .

ولكنه لم يفعل ، فقد علمه المركز الذى شغله كثيراً من حب المظاهر الباطلة . أجل إنه كان مؤدباً حسن المعاملة للناس ، ولكنه قد أصابه من مساوئ مركزه الكبير رشاش الزهو وظل عالقاً به .

فكان كل همه ألا تشعر امرأته وبناته بتغيير فى حياتهن ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يخفى على الناس وما فيهم من طبيعة الفضول ما كان من تغيير فى أموره المالية . والواقع أن الملتفين حوله من صحاب وغير صحاب كانوا يعلمون تماماً مقدار موارده ونفوذه وهو فى مركزه . ويترقبون الدعوات إلى داره فى تلهف زائد ، وقد ينصبون الشباك لكى يظفروا بمثل هذه الدعوات .

والآن تراهم علموا تمـــاماً ما لم تعلمه الأسرة ، ووقفوا تماماً على ما انتاب الباشا من نقص فى موارده المالية ، وضياع لكل نفوذه . فلم تعد لهم به من حاجة . وأخذ الصحاب الذين لا يعرفون المرء إلا وهو فى سعة من العيش واتساع من النفوذ يتناثرون وينفضون من حوله . فكان يرسل الدعوات فتأتيه الاعتذارات تترى ، وكان قبل ذلك قلما يصل إليه اعتذار عن دعوة . ففى أول حفلة أقامها بعد مغادرته مركزه ، تغيب ما يقرب من الثلث من المدعوين . وفى الحفلة الثانية نقص

العدد إلى النصف ، وظل العدد يتناقص شيئاً فشيئاً إلى أن شعر الباشا أن من واجبه أن يعدل عن إقامة الحفلات والدعوة إليها ، خشية أن يفتضح أمره أمام أسرته .

ومع ذلك لم تكن الأسرة بغافلة عن هذا الانفضاض من حولها ، ولكنها لم تشعر مطلقاً بصعوبة المركز المالى . وعزت انفضاض الناس إلى خيانتهم لمن ذهب نفوذه . لذلك استمرت الأسرة على ما ألفته من إنفاق وإن كان باب الإنفاق على الدعوات قد أغلق . وحاولت الأسرة أن تجد بديلا عن دعوة هؤلاء الناس وعن الذهاب إلى دعوات أولئك الذين قاطعوهم بالإكثار من الذهاب إلى السينما والمسرح ، وابتداع وسائل التسلية والترفيه بالسفر لقضاء أيام من الأسبوع فى الإسكندرية أو بورسعيد أو غيرها من الشواطىء أو لقضاء بعض الأسابيع فى الأقصر وأسوان إذا كان الوقت شتاء .

ومما زاد الأسرة إمعاناً فى ذلك ما لاحظته على الباشا من تغير فى مظهره يدل على توعك فى صحته .

فقد كان الباشا قصير القامة نوعاً ما بديناً بعض الشيء ، فبدا عليه نوع من الترهل ، كما أخذ يشعر بشيء من الدوار . وكان وجهه يبدو زاهياً محمراً فى بعض الأحيان ، ويعلوه اصفرار أحياناً أخرى ، وفاجأته امرأته أكثر من مرة وهو فى تفكير

عميق ، وركبته هموم خفية عليهـــا ، حتى تغضن وجهه .

وكانت فى هذه الحالات تحاول أن تسأله عن سبب همومه ، فكان ينتفض ويردها فى صوت قاطع فلا تسترسل فى سؤاله . فإذا رأى أنه نجح فى ردها ومنعها من الإلحاف عليه أظهر لها حنوًّا وعطفاً ينسيانها ما سبب لها من ألم برفضه .

والعجيب أنها لم تتجه فى تفكيرها إلى أن الباشا واقع فى صعوبة مالية . فهى قد اعتادت البذخ واعتادت أن تجد وسائل البذخ سهلة ميسورة لدى الباشا . ومضت سنون طوال وهى على هذه الحـــال ، وغادر الباشا مركزه فلم تجد تغييراً ظاهراً من هذه الوجهة . لذلك اتجه تفكيرها إلى أن ما يبدو على الباشا من انقباض يرجع إلى ما فقده من نفوذ . وكانت ترى أن الوسيلة لإزالة ما بنفسه هو التفنن فى وسائل تسليته وإزالة ما به من هم .

وأطلعت رئيفة كبرى بناتها على ما يســـاورها من قلق على والدها ، وطلبت إليها أن تساعدها فى تسليته وابتداع الوسائل لذلك كى ينسى مركزه الماضى . ومن الطبيعى أن ابتداع وسائل التسلية يتطلب كثرة الإنفاق .

وهكذا يجتذب التيـــار الضحية ويسير بها بعيـــداً عن شاطىء النجاة ليدفع بها فى غمرة الأمواج .

٥

وكان لابد أن يحدث ما ينتظر حدوثه . فلم يكد يمضى الحول على ترك الباشا لمنصبه ، حتى أصيب ذات يوم إصابة مفاجئة . ولم تمض عليه ثلاثة أيام حتى فارق الحياة . وقد عرف فى مماته بعض ما فقده من حياته . فشيعه إلى مقره الأخير جمع من الأصدقاء والزملاء الذين هجروه حينما ترك منصبه . وكأن تأنيب الضمير أو توقع ما قد يحدث لهم أو بقية من حياء لا تكلفهم كثيراً ، دفعت بهم إلى مواساة الأسرة . وظنت الزوج التى لم تشعر بعد بالعسر المالى أنها ستعود إلى حياتها الأولى . ولكن ما لبثت الأيام أن تكشفت عن أن رجعة هؤلاء الأصدقاء لم تكن إلا عرضاً زائلا . وبدأت عينا الزوج تتفتحان على أمور لم تكن تنبهت لهـــا ، فإذا بها ترى النفقات الهائلة التى تحتاج إليها الدار ، وإذا بها ترى الديون المتراكمة التى كادت تأتى على ثروة الباشا وزادتها نفقات المأتم سوءاً ، وإذا بها ترى كيف انكمش الدخل حتى أصبحت على شفا الفاقة ، بل صار هذا الدخل هو الفاقة بعينها فى نظر السيدة . أجل إنه قد يكفى مائة شخص من عامة الناس يعيشون به فيما يشبه النعيم فى نظرهم . ولكن مثل هذا الدخل

هو الفاقة بعينها فى نظر أسرة الباشا ؛ إذ كيف يستطيعون سداد نفقات السيارة ؟ وكيف يقومون بدفع أجرة الخدم؟ إن كل ما يستطيعون الاستغناء عنه إنما هو العدول عن الدعوات والاقتصاد فى الحفلات التى يؤمونها ؛ أما فى غير ذلك فلا مجال للاقتصاد مطلقاً فإن ذلك ينزل بهم عن مكانتهم فى الحياة الاجتماعية . وهذا أمر لا تستطيعه أسرة الباشا ، ولا ينبغى أن يكون فى مثل هذه الدار التى يمتلكونها .

وحارت الأم فيما تفعل وكاشفت رئيفة بهمومها . ولكنهما لم يهتديا إلى حل وأمسكت بهما الحيـــاة التى يعيشانها فى براثنها . فلم تستطع الأسرة الإفلات ، وكان شأنهما شأن الباشا وهو الرجل المجرب أكثر منهما ؛ فهو لم يستطع أن يجد حلا فكيف تجد هذا الحل السيدة وابنتها ؟

على أن الفتاة أخذت تفكر وتفكر ، وتتجه فى تفكيرها إلى أمر لم تكن من قبل تعيره اهتماماً . فرأت أن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق ولمساعدة أسرتها هو فى أن توفق لزوج ثرى .

لم تكن من قبل تفكر فى مثل هذا الأمر ؛ فقد كانت راضية بحياتها فى الدار كابنة مدللة للأسرة تجد كل ما تريده من رخاء وترف . وكانت مشاغل حياتها الاجتماعية ، وهى

عبارة عن موكب من الحفلات ووسائل التسلية ، تشغلها عما عدا ذلك من تغيير فى حياتها . وكانت تحب استقرار الحياة التى هى فيها . أما الآن وقد أخذ القلق يساورها ، وأصبحت حياتها غير مستقرة ، بل صار أفقها ملبداً بغيوم مظلمة ، فإنها أخذت تشعر بالحاجة إلى من يساعدها على الاستمرار فى هذه الحياة ، وعلى عودة الاستقرار إليها . وهى حياة ألفتها بل لا نقول ألفتها ، لأنها هى حياتها الطبيعية التى لا تفهم ولا تتصور غيرها .

وكانت منذ طرأت عليها تلك الفكرة تفكر طويلا وتمضى الساعات فى هذا التفكير ، وتطلق عنان خيالاتها تحاول أن تعلم من يكون هذا الزوج ، وتستعرض الشبان الذين قابلتهم فى دور الأسر المختلفة ، فلم تجد من بينهم من يصلح لها.

ليس ذلك لقلة من عرفتهم من الشبان الأثرياء ، وإنما لأنها كانت ، بمجرد الركون إلى خيالاتها ، تنسى أن الغرض الأول من الزواج هو الثروة . وتفكر فى شاب وسيم جميل الطلعة يحسن الألعاب الرياضية طلق اللسان بادى الرجولة كبطل من الأبطال الذين تراهم على الشاشة البيضاء ، ويتعشقون الفتيات ، وتنسى أن الجمال والثراء قد لا يجتمعان .

إذن صارت رئيفة تبغى الزواج وتفكر فيه ، ولكنها لم تبح

بفكرتها إلى أحد ولم تكاشف بها والدتها . على أن الوالدة نفسها فكرت فى مثل ذلك ، وشعرت أنها فى حاجة إلى رجل فى البيت يحل تلك المعضلات التى تكتنفها ، فيقف من تبخر تلك الثروة الزائلة بهمته وتفكيره . وهذا الرجل لا يمكن إلا أن يكون فرداً من أفراد الأسرة يهتم بأمورها ويعنى بها ، وهذا الفرد لابد أن يكون زوجاً لرئيفة .

وشعرت الأم أن ابنتها تفكر فى مثل ذلك ، ولكنها تعرف ما عليه الفتيات من حياء فى هذه الأمور ، فلم تشأ أن تسأل ابنتها عما تفكر فيه ، بل قنعت بأن ذكرت لابنتها ما يجول فى خاطرها من آمال نحو زواج هذه الابنة . وعارضت رئيفة هذه الفكرة فى شىء من الحياء هو أشبه ما يكون بالتسليم . ولكن لم ترد الأم الإلحاح فى هذا الموضوع وإشاعته ؛ لأن كرامتها وكرامة ابنتها تحول دون التكلم فى أمر الزواج قبل أن يظهر زوج صالح .

على أن هذا التفكير وهذا الاتجاه لدى الأم والابنة أنشأ جوًّا جديداً فى حياة الأسرة . فقد رأت الأم أن الوسيلة الوحيدة للعثور على زوج صالح هى أن تظل الأسرة على اتصالها بالأسر من طبقتها ، بل توسع من اتصالاتها بها ؛ وهذا يتطلب نفقات ، وهذه النفقات ممكنة طبعاً بالقضاء على البقية الباقية من الثروة .

ولكن ما المانع إذا كان ذلك يؤدى بالأسرة إلى أن تجد بغيتها .

ومع ذلك لم تفكر الأم فى أنها قد لا توفق ، أو أن الأمر قد يطول بحيث تذهب الثروة قبل أن يوجد الزوج .

أما الفتاة فإنها حين خرجت هذه الفكرة من حيز الأحلام ، إذ رأت أن أمها تجد فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذ الأسرة ، أخذت تحاول إعادة الصداقة بينها وبين زميلاتها فى الكلية ، وكانت قد هجرت كثيرات منهن . ولم يلحظ تغير آخر فى مسلكها ، وكانت فى ثيابها أنيقة كعادتها ، غير أنها كانت تحاول بوسائل غير ظاهرة إلا للعين الفاحصة أن تكون ثيابها لافتة للنظر .

وكانت رئيفة معروفة بين صديقاتها بأناقتها وبمرحها وحبها للمزاح أيضاً ، فكانت تخلق جوًّا أشبه بالجو الذى يعيش فيه الفتيات بين جدران الكلية الأمريكية ، ولكنها الآن بدت قليلة الكلام رزينة تحب الإصغاء هادئة فى حركاتها ، وكأنها تفكر فى شىء بل لو عرفوا لأدركوا أنها تبحث عن شىء .

ومع ذلك لم تعد رئيفة إلى الاتصال بهؤلاء الفتيات لكى تتصل بإخوتهن ، ولم تفكر رئيفـــة قط فى ذلك ، وإنما عادت إلى اتصالاتها لتستزيد من الحفلات الجامعة التى تستطيع الذهاب إليها . وقد يتيح لها الحظ فيها أن تجد الشاب

الذى يتقدم إليها راغباً فيها . ولا ريب فى أن جمالها ومركزها الاجتماعى معروفان لدى الجميع ، كما أن غناها مشهور لدى أترابها ، وكل ذلك كفيل بأن يجذب الزوج الصالح .

كانت الأم والابنة ترتقبان . وكانت الأم ترتقب بقلب واجف ، لأنها عليمة حق العلم بالسرعة التى تتبخر بها تلك الثروة المثقلة بالديون . أما رئيفة فكانت تملأ قلبها الآمال دون أن تفكر فى فداحة ما ينتظر الأسرة فى المستقبل .

٦

ذهبت رئيفة ذات ليلة إلى حفلة فخمة أقامتها فتاة كانت زميلة لها فى كلية الأمريكان لمناسبة ذكرى ميلادها . وهى فتاة من أسرة ثرية ، كان والدها تزوج من سيدة تركية ، وكانت أسرتها تعد بين الأسر ذوات النفوذ فى أسيوط . وكانت هذه الفتاة تسكن مع أسرتها قصراً بحى قصر الدوبارة . وكانت فتاة وديعة وعلى جانب كبير من الرشاقة ، إلا أنها شديدة السمرة بالرغم من بياض لون والدتها ، وكأنها أبت إلا أن تحافظ على لون أسرة أبيها . والعجيب فى الأمر أن كان لها أخ شديد البياض ، ولكنه لم تكن له فى الوقت نفسه جاذبية أخته .

وكانت الحفلة عظيمة ، اجتمع فيها بنات وأبناء الأسر ، وكل منهم يحاول أن يبذ الآخـــر بهندامه وأناقته . وأمضى الجميع الوقت فى سرور وكان ضحك الشباب كثيراً . أما آباء الأسر وأمهاتها فقد تجمعوا فى حلقات يتحدثون ويتجاورون ويرقبون مرح الشباب فى عطف ورحمة . وقبل أن ينتصف الليل بقليل دخل على الجماعة شاب أسمر اللون جذاب الملامح ممتلئ الجسم ولكنه امتلاء متناسب مع طوله . فتقدمت إليه الفتاة صاحبة الدار تصافحه وتؤنبه على تأخره فى غير كلفة ، وتقدم هو إليها يعتذر عن تأخيره فى غير خجل ، ويقدم إليها هدية صغيرة فى رأيه . وسارعت الفتاة إلى فتح العلبة التى تقدم بها فإذا بها مشبك مكون من لؤلؤتين كبيرتين صافيتين يحيط بهما إطاران مستديران من الماس الحر الصغير . وكانت الهدية جميلة حقا ، فظهر السرور على وجه الفتاة وشكرته فى كلمتين ، ثم أخذت تقدمه إلى صاحباتها واحدة فواحدة وإذا هو ابن عمها .

وتقدمت به إلى رئيفة ، فمدت رئيفة يدها إليه ومد إليها يده وقد أخذ بجمالها وأناقتها وقوامها . أما رئيفة فراقها منه تلك الصراحة والثقة بالنفس البادية فى جميع حركاته ، وإن لم تكن شديدة الارتياح إلى سمرته . وأمضت رئيفة بعد ذلك ساعة

تحدثت فيها إلى الشاب أكثر من مرة . وكل ما استطاعت أن تأخذه عليه فى تلك المقابلة الأولى شيء من الخشونة فى حركاته وشيء من الميل إلى التحدث بما ينم عن ثرائه . وكان الشاب فيما عدا ذلك ظريفاً حقا غير متصنع بعيداً عن تلك العبارات المنمقة السخيفة التى يكررها عادة الشبان من أهل طبقته . فكان بين هذا الجمع من الشبان أشبه بالوردة الطبيعية منه بالعطر الذى صنعته المعامل .

وانصرفت رئيفة من هذه الحفلة إلى دارها وهى راضية النفس عن ليلتها تفكر فى أنها قضت ليلة سعيدة . وحين أوت إلى غرفتها وأخذت تخلع ثيابها لترتدى ثياب النوم ، لم تفكر لحظة فى همومها ومتاعب حياتها ، بل كان كل ما ترمى إليه أن تأوى إلى فراشها لتظل فى هذا الحلم السعيد .

وفى صباح اليوم التالى قامت من فراشها نشيطة وتناولت فطورها فى شهية ، وكانت لا تزال راضية عن ليلتها الماضية ، وأخذت تفكر فى تلك الليلة . وكان جل تفكيرها يذهب إلى ابن عم الفتاة كما يذهب أحياناً إلى ذلك المشبك الثمين الذى تطلعت إليه أعين الفتيات جميعاً .

ومضت أيام ، وإذا هذه الأيام تمحو صور تلك الليلة شيئاً فشيئاً . وعادت هى إلى زياراتها ومشاغلها ، وعاد تفكيرها

فيما يحيط بها من حياة وفيما يحيط بوالدتها من متاعب وهموم .

ثم حدث أن زارتها صديقتها صاحبة الحفلة وكان يصحبها ابن عمها ، فتلقتهما رئيفة وتلقتهما أمها بالترحاب الكبير . وظهر فى أثنـــاء الحديث أن سالم ابن عم الفتاة هو الذى ألح على الفتاة أن تستصحبه معها فى هذه الزياراة . وظهر من تصرفه مع ابنة عمه أنه لا يكن لها غير الحب الذى يكنه أخ لأخته ؛ فهو يحب أن يداعبها فى شىء من الخشونة ، ويحب أن يعاندها ويغيظها كما يفعل الأخوة والأخوات تماما . وظهر أيضاً أنه كان بادى الميل إلى رئيفة معجباً بجمالها . ومن الطبيعى أن رئيفة شعرت بهذا الإعجاب وسرت به . وأين الفتاة التى لا تسر بالإعجاب بها ؟

كانت مسألة الزواج شـــغلا شاغلا لرئيفة وموضوعاً لتفكيرها منذ وقفت على تطور أمور الأسرة بعد وفاة الوالد . وكانت الأمور تقضى بأن تشترط فى زوج أحلامها أن يكون ثريًّا واسع الثراء فقط . ولا ريب فى أنها فى بادئ الأمر كانت تتخيل لعدم تجربتها فى الحياة أن الزوج لابد أن يكون شابًّا . وكانت تفكر فى الشباب الذين تعرفهم فلا تجد بينهم من ينشرح له صدرها . ومع مرور الزمن أخذت تفكر أمام تجارب عرضت لها فى حياتها ، أنها لكى تحصل على الزوج

ذى الثراء الواسع يجب أن ترضى بزوج متقدم فى السن وقد يبلغ سن والدها . فكانت تشمئز لتلك الفكرة ، وترى أنها ستصبح فى هذه الحالة ضحية ، فعزمت على أن تضحى بنفسها إذا لزم الأمر فى سبيل ضمان الحياة التى تحياها والتى لا تعرف غيرها . وكانت ترتجف فعلا كلما تخيلت مثل هذا الزوج المتقدم فى السن الذى ربما كان أولاده فى مثل سنها ، ترتجف فعلا لمجرد التفكير ، ولكنها كانت عازمة على قبول مثل هذا الزوج إذا حقق الغرض من الزواج .

وكلما مرت الأيام يتخذ هـذا الخيـال نوعاً من الثبات فى ذهنها حتى لكأنه حقيقة ، وصار الزواج شرًّا لا بد من الإقدام عليه .

أما الآن وقد اقترن هـذا التفكير بصورة سالم فإن رئيفة صارت تجد الزواج أمراً مرغوباً فيه بل محبباً تتمناه ، وإن كانت علاقتها بسالم علاقة بسيطة لم تتجاوز ليلة وزيارة قد لا تتكرر .

ولكن هذه الزيارة تكررت . ولوحظ فى مسلك صديقتها الفتاة تغير ؛ فهى لم تكن من قبل كثيرة الاتصال برئيفة ، ولم تك من صاحباتها المقربات لديها ، ولكنها غدت لا يمضى يوم حتى تحادث رئيفة فى الصباح وتحاول مقابلتها بعد الظهر ،

إما فى دارها وإما فى دار رئيفة . ويتواعدان على الذهاب إلى زيارة أو إلى ملهى . وزاد اتصال الأسرتين . وأخذت والدة الفتاة تألف والدة رئيفة ، فتجتمع الوالدتان كثيراً وقد أنست كل منهما إلى الأخرى .

وليس معنى ذلك أن رئيفة كانت تجتمع بسالم كثيراً فى صحبة ابنة عمه . فقد كان الفتى على أنه لا يعمل عملا مفيداً كثير المشاغل الاجتماعية ، فهو يمضى صباحه فى النادى الأهلى للرياضة ، وهو من أمهر لاعبى التنس ومن المولعين بتلك الرياضة وينفق الساعات فى التمرين . وكان أيضاً من المهرة فى السباحة يتعشق التجديف ، فهو مشترك فى نادى التجديف ، وتشغل الرياضات المختلفة كثيراً من وقته .

وكان والده أيضاً وهو يمضى أكثر أيامه فى الصعيد ليرعى مصالحه يكل إلى ولده رعاية هذه المصالح فى القاهرة . ففى أكثر الأيام يقابل بعض المحامين ويشترى لوالده وأهله كل ما يلزمهم من القاهرة ويرسل به إليهم . وكان فضلا عن ذلك كثير الصحاب يألف عشرة هؤلاء الصحاب أكثر مما يألف عشرة الفتيات .

لم يؤثر تعرفه برئيفة فى تغيير نظام حياته . لذلك كانت مقابلاته لرئيفة ليست بالكثرة المنتظرة . على أنه حين يعلم

بزيارتها لابنة عمه يدبر دائماً شيئاً من وقته ، نصف ساعة أو أقل أو أكثر بقليل ، يسرع فيها بسيارته الفخمة ليقابل رئيفة ، ويدخل دار ابنة عمه فى سرعة فيملأ الدار بهجة وسرورا ، بحديثه المرح وضحكه العالى ، ثم يترك الفتاتين إلى موعد من مواعيده .

ومع ذلك كان يصحب رئيفة وابنة عمه دائماً فى ذهابهما إلى دار من دور السينما ، ويجلس فى المقصورة إلى جانبهما . وكانت رئيفة تترقب ليالى السينما فى سرور داخلى عظيم .

٧

حدث بعد ظهر أحد الأيام أن جاءت الفتاة ووالدتها لزيارة رئيفة ، وبعد أن جلس الجميع معاً ، قامت والدة الفتاة وانتحلت سبباً بحيث صحبتها والدة رئيفة ، وانتقلت السيدتان إلى غرفة أخرى حيث ظلتا على انفراد فى حين كانت رئيفة وصديقتها تصغيان إلى بعض الألحان التى تنقلها الإذاعة من راديو باريس ، وبعد أن قضت السيدتان نحو نصف ساعة على انفراد ، عادتا وجلستا مع الفتاتين وقد بدت على محياهما علائم الرضا ، وبعد قليل انصرفت الأم وفتاتها .

وجاء موعد العشاء ولم يكن فى برنامج رئيفة ما يقضى

بالخروج بعد العشاء ، بل كانت تنتظر أن تمضى الليلة فى دارها تستمع إلى الإذاعة أو تقرأ قليلا أو تجرب أصابعها على البيانو . فجلست إلى عشائها مع والدتها وأختيها فى غير عجلة . وكانت الوالدة فى تلك الليلة بادية الانشراح على غير عادتها أيضاً ، وتكلمت الوالدة كثيراً وأصغت رئيفة كثيراً ، ولم تكن بها من حاجة إلى بذل مجهود كى تدير الحديث فى العشاء كما تفعل أحياناً حين تجلس إلى الطعام وترى على والدتها أثر الهموم .

فإذا انتهت الأسرة من العشاء جلس الجميع إلى جانب الراديو يستمعن بعض الوقت ، ثم قامت الأختان قاصدتين مخدعهما . وهمت رئيفة بالذهاب إلى غرفتها لتتيح لوالدتها الفرصة كى تقصد مخدعها أيضاً لتصيب قسطاً كبيراً من الراحة التى صارت فى حاجة إليها لتقدم سنها . ولكنها ما كادت تهم بالقيام حتى دعتها أمها إلى أن تظل جالسة قليلا ، لأنها تريد الإفضاء إليها بأمر هام .

وجلست رئيفة ولكنها لم تكن واجفة ؛ لأن انشراح والدتها كان باديا . وابتدأت الوالدة فى الحديث ، وسألتها هل تقبل الزواج إذا تقدم إليها زوج مناسب ؟

لم تتردد رئيفة فى مصارحة والدتها ؛ فقد علمتها الحوادث

أن زمن الحياء مضى وأن التردد لم يعد له مكان ، وصار الزواج حاجة ملحة لا ضرورة لإنكاره ؛ ومن الطبيعى أن أخبرت والدتها فى صراحة ليس فيها تصنع أو تكلف بأن لا مانع لديها من الزواج .

وحينئذ قالت لها والدتها إن أم الفتاة تحدثت إليها وهى تريد أن تخطب رئيفة نيابة عن سالم . وأثنت الأم على سالم خير ثناء فوعدتها والدة رئيفة بأن تستشير ابنتها .

ولم تتردد رئيفة فى الموافقة ، بل لم يكن من المعقول ألا توافق ؛ لأن الشاب بثرائه الواسع هو مطمح أنظار الأسر الغنية ، وفى حالة العسر التى حلت برئيفة وأسرتها هو البطل المنقذ للأسرة من الدمار . وهو فضلا عن ذلك مطمح الأنظار بشبابه وروائه ، فكيف تتردد رئيفة وقد أنقذت من ذلك الخيال الذى كان يتمثل أمامها زوجاً بلغ من الكبر عتيًّا تتزوجه لمجرد إنقاذ أسرتها ؟

وهكذا تمت هذه الخطبة وصار الخطيب يتردد على دار خطيبته وهو لا يحضر مرة إلا محملا بهدية ثمينة . وتغيرت طباع سالم ، فهجر أصدقاءه وصار لا يسرف فى رياضته بل يقوم بألعابه الرياضية فى أقل وقت ممكن للاحتفاظ بمركزه فى مختلف الألعاب . وصار أقصى لذته أن يمضى الوقت مع خطيبته

جالساً إليها فى دار ابنة عمه أو مصاحباً لها فى زيارة الحوانيت أو ذاهباً بصحبتها إلى دور السينما أو أحد المسارح .

وكان ينفق عن سعة إذ لم يكن للمال عنده حساب ، فأبوه لا ينقطع عن إمداده بالمال ، بل إنه عند ما سمع بقرب زواجه خصص له بضع مئات من الأفدنة يتولى إدارتها وينفق من ريعها . وكان الفتى يفعل ذلك دون نظر إلى ما يجب على أسرة خطيبته أن تقوم به ، ولم يكن يبدو أنه عالم بما فيه الأسرة من عسر ، وكأنه لا يرى فارقاً بين أن يقوم هو نفسه بالإنفاق أو تقوم أسرة خطيبته .

فكان يلح عليها فى اختيار الثياب التى سترتديها فى العرس وبعد العرس ، ويأخذها إلى المحال الكبرى لاختيار الأثاث الذى يؤثثان به دارهما ، وكان المنظور أن يظلا فى الدار التى يسكنها الخطيب ؛ فهى طابق كبير من عمارة يملكها والده ، وهذه العمارة قائمة فى حى قصر الدوبارة على مقربة من قصر عمه .

وذهبت رئيفة والخطيب وابنة العم حيث تفرجوا على هذا الطابق الذى كان عبارة عن ست غرف واسعة وبهوين كبيرين ، فوجدوه مؤثثاً بأثاث يدل على البذخ وإن كان فى نظر رئيفة لا يدل على حسن الاختيار . وهى لم تبح بذلك

ولكن الخطيب نفسه أعلن بأنه يرغب فى تجديد الأثاث ، ووكل الاختيار إلى رئيفة ، وصارا يترددان على المتاجر الكبرى واعترف لها الخطيب بأنه لم يقصد تلك المتاجر حين أثث داره بل قصد غيرها ، ولكن رئيفة بما لها من ذوق ربى فى دارها ثم فى كلية الأمريكان عرفت المتاجر التى تناسب هذا الذوق .

وأشارت عليه رئيفة بألوان طلاء الغرف المختلفة لكى تناسب الأثاث . ولم تكتف بذلك بل استشارت خبيراً من الخبراء المعروفين فى ذلك ، ولم تكن فى حاجة لهذه الاستشارة ولكنها فعلت ما يفعله عادة أهل طبقتها .

وأظهر سالم سخاء كبيراً ، إذ كان يهدى لخطيبته مختلف الهدايا الثمينة ؛ فهو لا يزورها مرة إلا ومعه قارورة من القوارير الممتلئة بالعطر الثمين أو مشبك ذهبى مرصع ، أو علبة صغيرة للمساحيق أو ما ماثل ذلك من الهدايا التى يكون ثمنها مرتفعاً . على أنه يمكن أن يقال إنه لم يكن يحسن فى بعض الهدايا الاختيار ، بل يعتمد فى اختياره على ارتفاع الثمن وحده . ولم يكن يقتصر على رئيفة وجدها بل يهدى التحف لوالدة خطيبته ولأختها ، حتى صرن جميعاً يحببنه ويعتبرنه فرداً من أفراد أسرتهم . وحمدت والدة رئيفة الأقدار التى ساقت هذا الزوج إلى ابنتها .

وكانت رئيفة تجد عوناً فى تجهيز ثيابها فى ابنة عم سالم ، وهى صديقتها التى كان لها الفضل بأن تعرفت إلى خطيبها . فإن هذه الفتاة التى تلقت تربية حسنة لدى الأمريكيين قد ربى فيها حسن الذوق ، وكانت لها عين ناقدة ، وساعدها ثراؤها على تربية ذوقها . ولذلك كان سالم فى صباح كل يوم تقريباً يمر على ابنة عمه ويستصحبها فى سيارته الفخمة حين يذهبان إلى دار رئيفة . وتكون هى منهما على موعد فهى مرتدية ثياب الخروج على استعداد لمصاحبتهما ، فيخرج الثلاثة حيث يمرون على مختلف الحوانيت ليختاروا ما تحتاج إليه رئيفة . وبعد ذلك يقصدون أحد الأماكن العامة للراحة قليلا قبل العودة للغداء .

وهكذا اقتربت رئيفة من ذلك اليوم الذى تصير فيه زوجاً لسالم .

٨

تم زواج سالم من رئيفة . وانتقلت رئيفة إلى شقتها بحى قصر الدوبارة . وهى شـــقة واسعة قد تفضل بعض الدور الكبيرة . وكانت العمارة على كثرة ساكنيها هادئة لا تكاد تسمع

فيها لغطا . فجميع السكان من علية القوم . والشقة فى ترتيبها ونظامها غاية فى توفير وسائل الراحة والشعور بفضل البيت . وتم تنسيقها بالأثاث الجـــديد فصارت آية فى الأناقة حتى ليدهش الداخل إليها . وكانت لدى رئيفة تلك الموهبة التى تستطيع بنظرة أن تتبين وجه الخطأ فى النظام ، أو تتبين ما يمكن أن يضيف إلى النظام حسناً بأقل كلفة . وهذه موهبة لا توجد كثيراً لدى السيدات وإن كان وجودها فى السيدات أكثر بكثير منها فى الرجال .

واهتمت رئيفة باختيار خدمها كما اهتمت بأن يكونوا فى ملابس حسنة الهندام تتناسب مع مركزها ومركز زوجها فى الحياة .

ولم تجد فرقاً بين حياتها فى دار أبيها وهـــذه الحياة التى تحياها مع سالم . غير أنها اكتشفت بعد أيام من زواجها أن فى مسلك سالم نوعاً من الخشونة كانت لا تجده فى والدها . رأت هذه الخشونة قبل أن تعاشره عشرة الزوجة ، ولكنها رأتها ضرباً من المزاح . فقد ذكرنا أن سالماً كان مرحاً يحب التندر والضحك وكان أى تأثير لما فى نكاته من خشونة يذهب بما يتلوه من ضحكة رنانة صريحة . ولكنها عند ما خلت به فى دارها لاحظت هذه الخشونة التى لم تألفها وفكرت طويلا فى

سببها ، فترجح لديها أن السبب فى ذلك هو أن الفتى من أهل صعيد مصر ، وأنه أمضى دراسته الأولى فى بلده فلم يصقل صقل أهل العاصمة .

ولما اكتشفت هذه الفكرة رجعت بالخاطر إلى تلك الحفلة الرائعة وإن لم يتوسع فيها ، وهى الحفلة التى زفت فيها إلى سالم . ففى تلك الليلة رأت والده لأول مرة . وبالرغم من الدهشة التى كانت مستولية عليها بسبب الحفلة ، فإنها لاحظت أن هندامه لا يتناسب مع ما عرف عنه من ثراء . ولا يعنى ذلك أن ثيابه كانت من نوع رخيص ، وإنما يعنى قلة الذوق فى اختيار الألوان التى تناسبه ، ووضع الثياب على جسمه كيفما اتفق دون عناية بتنظيم نفسه لا سيما فى هذه المناسبة السعيدة .

وكانت والدة سالم تسطع بمختلف الحلى اللامعة ، وتنعكس على حليها الأنوار ، فكانت هذه الحلى تنبئ عن ثراء عريض ولكن الذوق السليم ينفر منها .

فرئيفة إذن تزوجت فتى من أهل طبقتها بثرائه ، ولكنه ليس من طبقتها بتربيته .

أمر آخر فكرت فيه رئيفة ، وهو أن فى سالم نزقاً وشيئاً من الطيش ، فهو يغير رأيه فى سرعة ولا يثبت كثيراً على رأى . وأرادت رئيفة أن تصل إلى السر فى ذلك ،

وأخيراً عزت هذا النزق إلى تربيته أيضاً .

فهو لم يتلق التربية المناسبة لثرائه كما تلقتها رئيفة التى كان والدها على ثقافة كبيرة . ثم إنها عرفت فى صغرها مربية فرنسية كانت تلاحظها وتلاحظ آداب سلوكها ، ثم تلقت التربية بعد ذلك فى كلية البنات الأمريكية .

أما سالم فهو على الغالب تلقى تربيته الأولى بين الفلاحين فى ضيعة أبيه ، ولم يعرف مربية أفرنجية ولامصرية . ولم يتثقف أبواه إلا أقل الثقافة التى يعرفها أبناء الريف . ولا شك أن هذه الثقافة لم تكن مطلوبة فى الرجال وأكثر من ذلك فى النساء ما داموا واسعى الثراء .

فكيف ينتظر إذن من هذا الفتى أن يكون فى مثل ثقافة رئيفة ؟

ومع ذلك لم تكن رئيفة تضيق بزوجها ، بل أحبته بعد الزواج أكثر مما كانت تحبه قبل الزواج .

فقد كانت قبل الزواج تهتم أول كل شىء بثرائه ثم بجمال صورته . أما الآن فإنها اكتشفت فيه خلالا أخرى : لاحظت أنه سخى بالطبع لا عن تكلف أو حب للظهور . وأنه إذا كان يجاوز الحد فى إنفاق المال مما يبعث الناس على الظن بأنه يعمل ذلك لكى يشتهر بالغنى ، فإنه يبدو لها أنه

ينفق عن سعة لمجرد عدم اهتمامه بالمال ولحبه للإنفاق .

وليس ذلك بعجيب ، فإن سالماً لم يكن دخيلا بين ذوى الثراء ، ولم يكن والده دخيلا . فأسرته معروفة منذ قرون فى الصعيد الأعلى ، وكانت دائماً على ثراء كبير . وزاد هذا الثراء كثيراً على يدى جده وأبيه ، ولكن ذلك لا ينفى أن أسرته قديمة عريقة .

ورأت رئيفة فى زوجها فضيلة أخـــرى ، هى أنه كان طيب القلب جدًّا يتأثر لمصائب الناس سريعاً ، أو يتأثر لمجرد الظن بأن بعض الناس حلت بهم كارثة .

وهذه الخلة قلما توجد كثيراً فى الأثرياء من أمثاله وبخاصة إذا كانوا فى عهد الشباب . وكان سالم كجميع أبناء طبقته كثير المشاغل ، فهو فى حركة دائمة بين النادى وبين الزيارات المختلفة وبين زيارة الحوانيت لشراء ما يرغب فيه وبين التردد على المحامى فى أمور والده .

ومع ذلك كان إذا عرضت له حالة من حالات الشقاء يرثى لها ويعمل ما فى وسعه للمساعدة .

ولكن يجب أن نقول إن مثل هـــذه الحـــالات قلما تصل إلى عمله ؛ فإن من كان فى حركة دائمة مثل سالم لا يجد وقتاً لمقابلة البائسين كما أن الذى فى شاغل من أمره مثل

سالم وهو يدور فى وسط خاص لا تقع عينه على البؤس إلا نادرا .

ولكن رئيفة استطاعت أن ترى زوجها يعالج حالة أو حالتين ، فإذا به يعالجهما فى رقة لم تكن تنتظرها منه ، وهى التى لاحظت شيئاً من الخشونة فى أقواله وفى تصرفاته أحيانا .

٩

كان سالم يحبها ، ليس فى ذلك شك . ولكن حبه غريب عليها بعيد عما تصورته فى الحب وعما ذهبت إليه أحلامها ، وعما قرأته فى القصص . فقد كان حبًّا خشناً قويًّا لا يقوم على التدلله والتوله . وتعلمت رئيفة أن تحبه أيضا ، ولكنها تعلمت أن تخشاه . وكانت رئيفة فى بادئ الزواج تتردد بعض الشيء فى تنبيهه إلى نقائص صغيرة فى ذاتها ولكنها كانت فى عينيها كبائر لا يصح وقوعها . ثم أخذت بعد حين تنبهه إلى هذه الكبائر ، وظنت أن من واجبها ألا تترك زوجها دون أن تبرئه من نقائصه . فمن هذه النقائص تصرفه فى الدار ، فهو يقوم من النوم فيظل طويلا بملابس النوم لا يرتدى فوقها غير معطف البيت من الحرير الثمين . وكانت تنبهه إلى ضرورة

لبس ثيـــابه ، ولكنه يتوانى فى ذلك ولا يطيعهـــا . ولعله كان فخوراً بمعطفه الحريرى ويرى فى بريقه رونقاً أكثر مما يراه فى الملابس الصوفية . وعبثاً تحاول أن تفهمه بأن هذا غير جائز . فكان فى بادئ الأمر يضحك منها ويهزأ بما يسميه نظماً قديمة . ويخضع لها أحياناً فيظل أياماً يتبع النظم ثم يعود إلى ثورته وفوضاه فى هذه الأمور .

كانت رئيفة تأخذ عليه أنه لو ترك وشأنه لمال كثيراً إلى الثياب الزاهية ، فهو يحب من الألوان ما يلفت النظر لأول وهلة . وحاولت رئيفة أن تقنعه بأن الأناقة ليست فى الألوان الزاهية ، وإنما هى فى تناسب الألوان وهدوئها مما يدل على سلامة الذوق . وتذكر له دائماً كيف كان والدها يختار الألوان فى ثيابه فكان يســخر منها ويقول إنها ربيت على ذوق الشيوخ .

وكانت هذه المناقشات فى أمور هى فى ذاتها تافهة تترك فى نفس رئيفة أثراً كبيراً ؛ لأنها تعودت أن ترى الحياة قائمة على هذه الأمور ، وأن الخروج على هذه التقاليد مما يؤثر فى مركزها ومركز زوجها . لذلك كانت تشغل هذه المناقشات الصغيرة حيزاً كبيراً فى نفسها . وكان سالم إذا لاحظ منها الاهتمام بهذه الأمور أخذ يضحك منها ويسخر من تقاليدها ،

فيزيدها ذلك همًّا على هم .

وفى غير هذه المسائل لم يكن لرئيفة وجه للشكوى ؛ فهى من الوجهة المالية لا ترى للمتاعب أثراً . وكان فى استطاعتها أن تعاون أسرتها فى غير حرج وفى غير حساب ، إلا أن إباء الوالدة كان يمنع الأسرة من الاستفادة من سخاء زوج رئيفة . وكانت أمها ترفض فى شدة أى نوع من المساعدة وإن كانت لا تستطيع أن تحول دون الهدايا التى كانت رئيفة تغدقها على أختيها ، وسالم لا يقل إغداقاً عليهما . والواقع أن هاتين الأختين صارتا فى ظل رئيفة وزوجها تنعمان بكل ما كانت تنعم به رئيفة فى صباها .

هنالك أمر آخر لا تتفق فيه رئيفة مع زوجها ؛ فقد كانت تألف الموسيقى الأوربية منذ صغرها من مربيتها الإفرنجية ومن ميول أمها وأبيها وأتقنتها فى كلية الأمريكان للبنات أما سالم فلا يطيق سماع هذه الموسيقى مطلقاً ويسخر منها كل السخرية . ولا يحب غير الغناء المصرى ، ويحاول أن يذهب برئيفة إلى الحفلات الغنائية التى تقام بين وقت وآخر ، ولكن رئيفة على رغبتها فى إرضاء زوجها تعتذر عن الذهاب لأنها لا تستطيع أن تقضى ساعات فى الإصغاء إلى ما لا يعجبها . وتقوم بينهما المجادلات فى هذا الموضوع وهى

مجادلات لا يجدان فيها مجالا للاتفاق . ولعل الاتفاق فى هذه المسائل الفنية من أصعب الأمور لأنها وجهات حساسة لدى الذين يحبون الفنون ، فكيف يستطاع التسليم فيها وهى جزء من غذائهم النفسى !

وعلى ذلك كانت رئيفة فى ليلة هذه الحفلات تدبر لنفسها قضاء الليلة فى دار ابنة عم زوجها أو فى دار أسرتها . وفى تلك الليالى يعود سالم من هذه الحفلات وهو ثمل دائماً ، وذلك مما يزيد رئيفة غضباً على هذه الموسيقى التى لا تسمع إلا مع الخمر .

أما فى الليالى الأخرى فكانت رئيفة تذهب دائماً مع زوجها ، فهما يشاهدان كل ما يعرض فى دور السينما ، وهما يذهبان إلى جميع المسارح ويكونان دائماً مصحوبين بالأختين الصغيرتين لرئيفة وأحياناً ببعض الصديقات أيضاً ، ولا ينقطعان عن الذهاب إلى دور السينما والمسارح إلا إذا كانا مدعوين إلى حفلة من الحفلات تقيمها إحدى الأسر التى تعرفها رئيفة .

وهكذا مضت عدة أشهر على رئيفة فى زواجها ، وكان الزواج موفقاً إذا قسناه بالمقياس الاقتصادى ، وهو زواج موفق أيضاً فى غير ذلك . فالزوج شاب وسيم يحب زوجته ، وتعلمت رئيفة أن تحبه . غير أنه كانت تكتنف هذا الزواج

سحب لم تكن كثيرة ولا متجمعة ، ولكنها تغطى جانباً من السماء الصافية ، وهى تتألف من تلك المآخذ فى مسلك سالم فى داره حين لا يخضع للنظم التى يقضى بها مركزه ومركز زوجته ، وفى تلك الخشـــونة فى طباعه التى تبدو أحيـــاناً فى معاملته وفى عباراته ، وشىء من النزق الذى يبدو أحياناً فى تصرفاته .

ومع ذلك كان سالم نفسه يتهم زوجته بشىء من الغرور وتقيدها بتقاليد بالية ، ينعى عليها تربيتها ويرى أن ضرر هذه التربية أشد من نفعها ، ولو أنها قضت دراستها فى المدارس المصرية لابتعدت فى مسلكها عن هذا الاتجاه الذى يخالف الطباع المصرية ، ويأخـــذ عليها شـــيئاً من النزق أيضاً فى تصرفاتها .

ولكن مما يلاحظ أن كلا من الزوج والزوجة كان يحاول فى الشهور الأولى من زواجهما أن يظهر بأحسن مما هو فى الحقيقة ، ويهتم بإرضاء الآخر ويتأثر بملاحظاته . فكان سالم أكثر إطاعة لرئيفة فى الخضوع لتقاليدها وإن فعل ذلك وهو ساخر . وكانت رئيفة تحاول أن تظهر الخضوع لآراء زوجها وتفعل ذلك فى صمت .

١٠

فى ذات ليلة عولت رئيفة وزوجها على الذهاب إلى حفلة راقصة كبيرة تقام فى فندق هليوبوليس لمناسبة خيرية . وكان المنتظر أن يحضر هذه الحفلة أكبر الأسر فى مدينة القاهرة ، بل ينتظر أن يحضر إليها أسر من أثرياء الريف . واهتمت رئيفة بتلك الحفلة فارتدت ثوباً للسهرة فى منتهى الأناقة من الحرير الأزرق اللون وعليه دنتلا حريرية من صنع فالنس ، وكان الماس يتلألأ فى صدرها ومن بين ثنايا شعرها . وبدا سالم فى ثوب السهرة أنيقاً للغاية كما بدت وسامته ظاهرة للعيان . وكانت رئيفة تصحب أختيها ، وقد لبستا ثوبين فاخرين كانت رئيفة قد أهدتهما إلى أختيها ، وذهب الجماعة إلى تلك الحفلة فى أفخم سيارة ، ولكنهم ذهبوا متأخرين بعض الشىء ، وعند ما مروا من الباب الواسع المزركش بالطراز العربى ، ودخلوا إلى الردهة المفروشة بأفخم السجاد ، وفيها ذلك الدرج الذى يصعد إلى الطابق الأعلى ، وفيها تلك المصابيح المصنوعة لتوحى بقصور ألف ليلة ، وجدوا جمعاً من الناس يتألف من السيدات بثيابهن الفاخرة المنوعة ومن الرجال بثيابهم السوداء

الأنيقة ، وهو جمع متنوع وهو فى الوقت ذاته متناسق باتحاده فى مظاهر البذخ والثراء .

وجدت رئيفة كثيراً من الأسر التى تعرفها . وكان الأصدقاء من الأسر يجتمعون للحديث ويتنقلون فى جوانب المكان أو يصعدون إلى الطابق الأعلى ويرتادون الأبهاء المختلفة بما فيها من أنواع التسلية . ففى بهو فى الطابق الأعلى تجد راقصة ترقص رقصاً شرقيًّا بديعاً فى مهارة وإغراء وفى بهو آخر تجد ساحراً يقوم بألعاب تدهش الحاضرين . أما الرقص الأوربى فكان يدور فى بهو كبير فى الطابق الأول . وفى أحد الجوانب يستطيع المرء أن يجـد مشرباً للخمر منظماً على الطريقـة الأمريكية ، وفى جانب آخر نظم مقهى بلدى حيث وضعت الوسائد الوثيرة على الأرض لكى يستطيع هؤلاء القوم من الطبقة العليا أن يتوهموا أنهم فى جلسة بلدية بتلك المقاهى التى يرونها من خلال زجاج سياراتهم عند اختراقهم بعض الأحياء الوطنية فى المدينة .

وتنقل سالم مع أسرته فى كل هذه الأبهاء ، ينفق عن سخاء ، ويزيد إنفاقاً عن المعتاد إذ يعرف أن الحفلة خيرية . وكان يقف بالمشرب أكثر من أى مكان آخـر . واسترسل فى تلك الليلة فى الشراب زاعماً أن فى ذلك خيراً للحفلة .

وبدأ صوته يرتفع بأكثر مما تحب رئيفة فى مثل هذا الجمع ، وأخذت ضحكاته ترن فى الأسماع فيلتفت إليه بعض الحاضرين. ويحمر وجه رئيفة . وأخذت تشعر بشىء من الأسف على حضورها هذه الحفلة ، ولكنها مع ذلك كبتت شعورها وإن كانت قد فقدت لذتها . والحقيقة أنه لم يكن فى الأمر ما يخجلها ؛ فإن الكثيرين من الشباب أمعنوا فى الشراب ففقدوا توازنهم وصاروا يضحكون ويضجون بلا سبب . ولكن الفارق بينهم وبين سالم أن أكثر هؤلاء الشبان من غير المتزوجين ، وأن بعضهم كان متزوجاً ولكن الزوجة لا تحب زوجها ولاتعطف عليه عطف رئيفة على هذا الزوج الذى تنعم به الآن .

وفى وسط هذا الجمع الحافل قابلت رئيفة فجأة هى وابنة عم سالم صديقة لهما من أيام الكلية ، كانت الفتاتان تحبانها حباً جماً ، وهى من أسرة عريقة ثرية من أصل لبنانى . وفى صحبة هذه الفتاة أخوها ، وهو فتى طويل القامة أبيض اللون ذو شعر يميل إلى الصفرة . وقدمت الفتاة أخاها إليهما ، وصادف أن الجمع كان فى بهو الرقص الأوربى وعزفت الموسيقى رقصة التانجو ، فسأل الفتى رئيفة أتحب أن ترقص ؟ فألقت رئيفة إلى زوجها نظرة ، فإذا به ينظر إليها ويضحك ضحكة فسرتها رئيفة بالموافقة على ذلك ، أو لعلها لم تفسرها بالموافقة

وإنما غاظتها الضحكة البلهاء ، فتقدمت إلى الفتى بالموافقة ورقص الاثنان ، وكانت رئيفة تحسن الرقص وكان الفتى رشيقاً فى رقصه .

وانتهى الرقص وإذا سالم يتقدم إلى الفتى فى أدب لم تكن تنتظره رئيفة وهو بتلك الحال ، فيثنى على إتقانه الرقص . ويجيبه الفتى فى أدب جم إن الفضل فى ذلك لإتقان زوجته هذا الفن . ودعا سالم الجميع إلى المشرب مرة ثانية ، وكادت رئيفة تمانع لولا أنها وجدت من قلة الذوق أن تعترض وزوجها هو الداعى . وفى المشرب تناول الرجال خمراً وتناولت السيدات نزعاً مخففاً من المشروبات ، وكان سالم يستزيد من الشراب .

اضطرت رئيفة إلى تنبيه زوجها ولكنه كان ينظر إليها ويضحك ضحكة بلهاء ويسألها لماذا هى خائفة من كثرة الشراب ؟ وأخيراً التجأت رئيفة إلى حيلة فأخبرته بأنها تشعر بوجع شديد فى الرأس ، وأنها لا بد أن تبارح هذه الحفلة وأن تأوى إلى فراشها ، وودعت أصدقاءها وخرجت هى وصحبتها وزوجها . وعادت إلى دارها بعد أن أوصلت أختيها إلى دار أسرتها وابنة عم زوجها إلى دارها .

عاد الزوجان إلى مسكنهما وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل . وأخذت رئيفة تخلع ثيابها . أما زوجها فجلس على مقعد

كبير وأخذ يتكلم فى صوت عال قائلا إن الساعة ليست متأخرة، وإنهما يستطيعان أن يذهبا إلى حفلة أخرى . فأجابته رئيفة وقد بدأت تشعر بالغيظ لأنه أكثر من الشراب، إن ذلك غير معقول وإنه من الخير له أن يأوى إلى فراشه فهو فى حاجة إلى الفراش أكثر منها . فقال لها وهو يضحك عاليا : ولكنك لا تزالين فى حاجة لإتمام الحفلة حيث تستطيعين أن ترقصى ما شئت مع فتيان . فردت عليه رداً مقتضباً قائلة : وهل فى الرقص عيب ؟ فأجابها لا عيب فيه ما دام المصاحب جميلا . فردت قائلة : لأن يكون كاملا فى خلقه خير من أن يكون وسيما .

وحينئذ أخذ الغضب يستولى على الفتى المخمور وأخذ يتفوه بعبارات لم تكن تنتظرها مطلقاً، فردت عليه فى حدة لتحمله على أن يلزم الأدب ، وإذا به يقوم فجأة ويتناول عصاً قصيرة كانت فى الغرفة ويضربها ضرباً مؤلماً ، ثم يغادر البيت .

١١

كان صباح ذلك اليوم من أشق الأوقات فى حياة رئيفة ؛ فهى لم يغمض لها جفن . ومن الطبيعى أنها لم تفعل ذلك خوفاً مما يصيب زوجها المخمور ، فالغالب أنه قصد بيت عمه القريب

من مسكنهما فأمضى فيه ليلته ، إنما لم يغمض لها جفن بسبب الإهانة التى لحقتها .

لم تعرف رئيفة قط طعم العصا من قبل ؛ فقد كان أقصى عقاب ينالها من والديها وهى صغيرة أن تؤمر بملازمة غرفتها وأن تحرم النزهة . وأقصى عقوبة تشير بها مربيتها هى أن يحال بينها وبين الهدايا إلى أن تعتذر عن الخطأ الذى ارتكبته . أما أن تمسها العصا وأما أن تنزل عليها العصا فى ضربات وحشية فذلك ما لم تتصوره . والأكثر من ذلك أن تنزل العصا من يد زوجها ، فهى لم تسمع قط ولم تعرف فيما قرأت أن زوجاً يضرب زوجته .

كانت تحس فى جسدها كلما فكرت فى ذلك بلذعات من نار ليس ذلك لأن الضرب كان شديداً حقيقة ، بل لأن كل ضربة من ضربات العصا قد تركت فى كبريائها جرحاً لا يندمل .

ماذا بقى لها من هذا الزواج بعد ذلك ؟ هل تستطيع أن تظل مع هذا الزوج الذى ينقلب وحشاً فى لحظة ؟ إن ذلك لمستحيل . ولكن ستبقى ذكرى هذا الحادث عالقة فى ذهنها لا تمحوها الأيام . وأدهى من ذلك أن هذا الحادث لا يمكن أن يخفى ، فهى ساعة تفارق هذا الزوج سيعلم الجميع أنها أهينت فى كرامتها على هذه الصورة الوحشية . وهى لم تفكر فى أن هذا

العمل الوحشى سيدمغ زوجها بالقسوة ، بل فكرت فى أنه سيدمغها هى بالذل . ولكن ماذا تفعل ! إنها على الأقل ستتخلص منه ، ولن تتكرر هذه الإهانة التى ستظل جاثمة على صدرها مرسومة فى ذهنها تبعد عنها أية فكرة فى الزواج تأتى من بعد .

فكرت فى هذا طويلا ، وفكرت فى خاطر آخر كان أشد وقعاً ، فلقد خيل إليها أن الحياة شىء لا قيمة له وأنها أمر تافه يجب التخلص منه . وخير وقت لذلك هو فى تلك الساعة التى خسرت فيها كل شىء حتى الكرامة .

ولكن هذه الفكرة لم تلبث طويلا بل أبعدتها وتغلب عليها روح الشباب كما تغلب عليها الوسط الذى تعيش فيه . فهى إذ تستعرض هذه الحياة فى ذهنها تجد أن فيها الكثير مما لا تحب أن تتخلى عنه . واستولت عليها رعدة عند ما فكرت فى ذلك العدم الذى تنتقل إليه إذا هجرت هذه الحياة .

إذن لم يبق أمامها إلا أن تعيش ، وتعيش عيشة بعيدة عن هذا الشقاء ، بعيدة عن هذه العصا التى أحست وتحس بوطأتها ناراً تلهب قلبها . ولكن ! أية عيشة ستحياها بعد ذلك .

وتمثلت أمام عينها تلك الفترة التى أمضتها قبل زواجها وبعد وفاة والدها . ورجع بها الذهن إلى تلك الهوة التى وجدت نفسها

على حافتها هى وأمها المسكينة حين بدأ شبح الفقر والحاجة يقترب من الأسرة ، وكيف أنها ووالدتها كانتا تتخبطان للاحتفاظ بالوسط الذى تعيشان فيه . ولكن الأقدار تجرهما بقوة لا تقاوم كالصياد يسحب شباكه التى وقع فيها صيده من الأسماك فى حين تحاول الأسماك التخلص من الشباك .

عبثاً كانت المقاومة عندئذ ، فانقلبت رئيفة تحاول بكل قوتها أن تصيد قلب فتى ينقذها من هذا الموقف . ووجدت هذا الفتى فى سالم وقد أنقذها فعلا .

ولكنها الآن صار عليها أن تختار إما القطيعة فتسلم نفسها وأسرتها للأقدار احتفاظاً بكرامتها ، وإما قبول سالم على علاته فتسكت عن شره راضية بما يصيبها من خير .

فهنالك أمامها مشكلة يجب حلها . وهى تشعر أن سالماً سوف يعود إلى رشده عند ما تزول آثار الخمر ، وسيندم على ما فعل . ولكنها لا تضمن مطلقاً أن ذلك الأمر لا يتكرر مرة أخرى ؟ فإن تربية سالم هى فى الواقع تربية ناقصة لم تألفها . وإذا صممت على الاحتفاظ بكرامتها فمعنى ذلك هو الفراق ثم الرجوع إلى الفقر والحاجة .

وهل تستطيع الفتاة التى رأت النور فى قصر من قصور الزمالك وتنعمت بكل متع الحياة أن تفكر فى اسم

الفقر البغيض دون أن ترتجف ؟

إنها لتستطيع أن تقاوم الفقر بالقناعة ! ولكنها تتمثل نفسها وهى عندئذ تبحث بين ثيابها فلا تجد ثوباً من حرير ، وتفكر فى أنها قد تريد الخروج يوماً فلا تجد سيارة تحملها ، وتفكر فى غير ذلك من الأرزاء التى تؤثر عليها الموت فترتجف حقًّا .

ليس أمامها إلا أن تستأنف الحياة مع سالم بحلوها ومرها ، وليكن ما يكون . . .

٢

نظرة إلى شاعر

حقق السائح أمنية العمر حين فرغ من زيارته لمدينة « بون» وعاد إلى محطتها ليركب القطار . وكان من أقصى أمانيه أن يرى البلدة التى رأت الموسيقى الألمانى بتهوفن يعبث كما يعبث الأطفال ، إن كان قد عرف عبث الأطفال فى طفولته ، أو يقطع شوارعها وهو صبى ، حاملا كراسات الموسيقى كى يعزف أمام جمع معجب بنبوغ الطفل الصغير .

حقق السائح أمنيته ، وكان سعيد الطالع إذ كان الجو صحواً فعرف تلك البلدة القديمة من مدن ألمانيا الواقعة على نهر الرين وهى فى أبهى حلتها ، تحت سماء زرقاء صافية ، واخترق شوارعها النظيفة ، وجلس خلال الحى القديم ، وزار تلك الدار التى رأت مولد الموسيقى العظيم ، ثم زار جامعتها التى شهدت ألمانيا فى القرون الوسطى ، وجلس جلسة هادئة على أحد المقاعد التى تطل على الغابة الصغيرة التى تجاور الجامعة ، ثم قام يضرب فى الشوارع على غير هدى أو غير غرض .

وكان النهار قد انتصف ، وأحس بالجوع فلم يلجأ إلى أحد المطاعم المزينة بالورود فى نوافذها ، بل أراد أن ينتحى مكاناً هادئاً بعيداً عن الناس ، ليفكر فى مشاغل يومه ، ويجمع ذكريات تلك اللذة التى وجدها فى المشاهد المختلفة فيتذوقها .

وبينما هو يتطلع يمنة ويسرة ، نظر عن يساره إلى حانة قديمة ، تتصاعد منها رائحة شواء من اللحم المضغوط . ونظر داخلها فإذا بها خالية من الناس إلا من صاحبها . وارتفعت إلى مسامعه أنغام هائلة ، فلم يتردد فى الدخول ، وجلس فى ركن المكان أمام منضدة خشبية . وجاءه صاحب الحانة البدين فطلب كوباً من نبيذ الرين وشيئاً من الشواء .

وكانت الموسيقى التى يسمعها من آلة الراديو ألحاناً عظيمة ولكنها ليست ألحان بتهوفن ، بل هى قطع موسيقية ينقلها الراديو من ألحان فاجنر العظيم .

وهكذا وفق السائح فى رحلته وتمتع أية متعة ، وعاد إلى المحطة ليركب القطار .

كان لحسن حظه أن وجد مقصورة خالية ، فجلس إلى جانب النافذة كى يمتع النفس بما يمر به من مناظر . ولكن المقصورة ما لبثت أن امتلأت بالراكبين . فهذه سيدة عجوز تجلس إلى الجانب الآخر من الوجهة المقابلة وقد أجاست إلى

جانبها صبيًّا لايتجاوز الخامسة من عمره بأية حال . ويظهر أن السيدة لم تكن أمًّا بل جدة ؛ فالفارق بين الطفل والسيدة عظيم .

ودخل إلى المقصورة رجل قصير القامة ممتلئ الجسم بارز البطن نحيل الساقين ، كان من الصعب تقدير سنه ؛ فإن السن قد تمتد به من بداءة الحلقة الخامسة إلى نهايتها . وإن ما اكتسى به من شحم ولحم جعل من وجهه كرة فيها نجاد ووهاد . وكان حليق اللحية والشارب ، ويعتبر بين الألمان أسمر اللون فهو فاحم الشعر فيما بقى له منه .

وكان يحمل فى يده حقيبة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ولكنها فاخرة فهى من جلد الخنزير .

وكانت السيدة العجوز قد تركت المقعد القريب من النافذة خالياً . فجلس هذا الرجل إلى هذا المقعد بعد أن وضع حقيبته على الرف وعلق قبعته وصار فى مواجهة السائح .

ثم دخل رجل وسيدة وجلسا إلى المقعدين الخاليين وبذلك امتلأت مقاعد المقصورة .

وتحرك القطار يسير إلى يمين النهر قاطعاً الطريق إلى كوبلنز وفرانكفورت ، ومتعرجاً فى أغلب الأحيان ، يلتمس أن يظل بجانب النهر ، كى يستطيع راكبو القطار أن يتمتعوا بجمال المنظر الذى يطلون عليه .

وما لبث الراكب البدين القصير أن هب من مقعده بعد تحرك القطار ووقف وتناول حقيبته من فوق رأسه ووضعها على المقعد ، وفتحها فى عناية وأخرج كراسته ، ثم أقفل الحقيبة فى عناية أيضاً ووضعها فوق الرف المثبت فوق الرءوس . وعاد إلى جلسته بجانب النافذة وأخرج من جيبه قلماً مليئاً بالمداد له غطاء من ذهب ، وأخذ يطيل التفكير ، فكان فى تفكيره واستيحائه لفكرته ، يبدو كشاعر يريد أن يسترضى إلهة الشعر كى تجود عليه بشىء .

وكان المنظر جديراً بأن يكون مهبط مثل هذه الإلهة ؛ فزرقة السماء شديدة شدة لا ترى إلا فى بلاد الشمال ، حيث ينقطع النور دون أن يكسوها بتلك اللمعة التى ترى فى مناظر الشرق ، وكان الغمام يحلق فى كبد السماء بعضه أبيض نظيف والبعض داكن ينذر بالغضب . وكان النهر صافياً فى لونه ولكنه معتم فى تحركه وجيشانه ، وكانت الريح لا تتركه هادئاً . أما الجالسون فى المقصورة فكانوا يرون السماء على زرقتها كالفتاة الجميلة النزقة التى ، على جمالها ورقتها ، لا تلبث أن تتحول وتغضب . وكانوا دائمى النظر إلى النافذة ينتظرون تحول الجو فى خارج المقصورة ، أما هم ففى دفء صناعى شامل ، يحول بينهم وبين غضب الطبيعة ذلك الزجاج البلورى الذى يغطى

النافذة بإحكام . وكانت وثارة الوسائد التى يستندون إليها فى المقصورة ، وقد كسيت بجلد ناعم وغطيت بأغطية بيضاء صافية مطرزة ، مما يشعرهم بالأمن كلما رأوا السماء تزداد اكفهرارا.

وتجمعت السحب الداكنة وجرت من كل جانب وكأنها تلبى دعوة قائد ، فتغلبت على صفاء السماء وزرقتها ، وأخذ المطر ينهمر فى شدة وينساب فوق الزجاج البلورى ، وأخذت الأنفاس الحارة فى داخل المقصورة تستحيل على زجاج النافذة إلى ما يشبه البخار .

كل ذلك كان جديراً بأن يسترضى آلهة الشعر فتنزل على قريحة الشاعر البدين بوجهه المستدير ذى النجاد والوهاد . وجحظت عيناه كما تجحظ العينان فى كثير من الأحيان حين يجول الوحى بالعقول ، ثم يهم بالنزول . واقترب القلم من القرطاس .

ولكن لسوء حظ الشاعر كان الغلام الذى يجلس إلى جانبه نحيلا عصبيا ، فأخذ يتحرك فى مقعده ويلتوى . وفى التوائه لمست قدمه الصغيرة ساق الشاعر الضخمة التى كأنها قدت من شجر البلوط .

والشعراء حساسون لا يرضون بمثل هذه القدم الصغيرة الجميلة حين يكونون فى حضرة إلهة الشعر وهى توشك أن تتجلى لهم .

وإلهة الشعر فتاة غضوب . فأحس الشاعر بأنها طارت من رأسه ، فنظر إلى الغلام نظرة الغضب . وفى اللحظة نفسها كانت يد الجدة الرحيمة تمتد إلى الغلام تدعوه إلى النظام والسكينة .

ابتعد القطار قليلا عن النهر ، وحجب منظر النهر تل قائم من حجارة حمراء وكان المطر لا يزال ينصب عليه مدراراً . ثم ظهر النهر فى منعرج بعد قليل ، وانقطع المطر وبدت زرقة فى السماء ولكن فى جانب واحد فيها ، أما الجانب الآخر فكان لا يزال مغطى بغيوم داكنة تخفى منظر وجه الشمس .

وبدت على حين فجأة فى النهر جزيرة صخرية مرتفعة لعلها تلك التى كان يسكنها بنات نهر الرين ، وتلك التى تقيم فيها « اللورلاى » ملكتهن حيث تجتذب برخيم صوتها الفتيان الذين يسحرون بهذا الصوت ، فيقذفون بأنفسهم فى مياه النهر طمعاً فى الوصول إلى صاحبة الصوت ولكنهم لا يصلون ، فهم بين غريق فى الماء أو قتيل مزقته الصخور .

وحقاً كان يبدو من مياه النهر شىء غريب ؛ فهى فى زرقتها المعتمة تضرب طول الوقت جوانب تلك الجزيرة الصخرية تحاول أن تتسلق إليها ، وكأن أرواح هؤلاء الفتيان قد ملأت هذه المياه الزرقاء المعتمة فهى تحاول أبداً أن تحقق ذلك الحلم الذى فقدوا حياتهم فى سبيله .

ثم اختفى منظر تلك الجزيرة الرهيبة الساحرة ، وتحول القطار إلى متجه آخر بعد فيه قليلا عن النهر . وكانت الشمس قد بدأت تطل فى خيوط من ذهب وراء ذلك النقاب من السحب الذى يحاول أن يحجبها . ولم يكن قرص الشمس يبدو لأعين الراكبين ، وإنما تظهر هذه الخيوط فقط وقد تسلطت على النهر من بعيد ، فأخذ النهر يبدو كخيط من فضة يتلألأ دائماً وحال بُعده دون مشاهدة ما بالنهر من اضطراب .

وعاد القطار فاقترب من النهر ، وكانت صفحة السماء قد أخذت تصفو وبدت الشمس حمراء ضاحكة وهدأت الريح . فالنهر يسير سريعاً ، أجل ! ولكن لا يعروه اضطراب ، ورئيت فيه سفن بخارية بيضاء تسير فى الاتجاه المقابل للقطار ، وهى تنزل فى النهر قاصدة مصبه ، وظل المنظر هكذا ضاحكاً سعيدا .

وأحس الشاعر بإلهة الشعر تنزل على رأسه الأصلع وتمد يدها تحاول أن تداعب خصلات من الشعر فلا تجد ، فتجلس فوق تلك الكرة من العظام يكسوها جلد لامع وتمد يداً إلى أذن الشاعر ثم تداعب بأناملها ذلك الخد المنعرج بالنجاد والوهاد ، فيقترب القلم من القرطاس وإذا السائح يرى الشاعر وقد خط بيتاً

أو بيتين وفمه يتحرك حركة أبعد ما تكون عن ترديد شعر ، وأقرب ما تكون إلى التهام قطعة من اللحم شهية ترضى هذا الجسم البدين .

ولكن الشاعر كان قد نسى كل شيء ، نسى كل من حوله فى العربة وهو يخط هذا البيت أو هذين البيتين ، وغاب من حوله جميع هؤلاء الجالسين الذين يتصفحون عدداً من الصحف الألمانية اليومية أو مجلة من المجلات ، وهذا شأن القوم جميعاً سواء أكانوا يشاهدون منظراً أو يفكرون فى شيء أو يجلسون إلى الطعام .

نسى هؤلاء جميعاً ، ولكن الغلام الصغير الجالس إلى جانبه لم ينسه ؛ فأخذ يراقب حركات ذلك الرجل الغريب المضحك الذى يجلس إلى جانبه ويحرك شفتيه الغليظتين كأنه يتكلم أو يأكل فى غير صوت أو طعام . ثم بعد أن راقبه قليلا نسى الغلام نفسه أيضاً فانفرجت ذراعاه وتثاءب ولمست يده الصغيرة كتف الشاعر وإذا بالشاعر ينتفض كأنه لمسته حية رقطاء . وإذا به يشعر بإلهة الشعر وقد طارت بعد أن اتخذت جلستها فوق ذلك الرأس الأصلع اللامع . ونظر إلى الغلام نظرة قاسية يود لو أنه قضى عليه بها ، فى حين كانت يد الجدة الرحيمة تمتد إلى الغلام تدعوه إلى نفسه وإلى التزام النظام والسكينة !

سار القطار ينهب الأرض والشاعر ممسك بالقرطاس فى يده والقلم فى اليد الأخرى ، وكان محدقاً بعينيه وشفتاه ترتعشان أحياناً بما يشبه التمتمة ويبدو فى وجهه نوع من الاحتقان كأنه من أثر وحى الشعراء ، وكان يهم أحياناً أن يسطر شيئاً على القرطاس ولكنه لا يكاد يهم حتى يعتريه فتور فتعود يده التى همت بالقلم إلى مكانها الأول .

وفى هذه الأثناء تحول منظر السماء ، فبعد أن بدت زرقتها فى أكثر مواضعها ، ولم تبق إلا سحب بيضاء فى أطرافها ، إذا بغيوم داكنة تأتى مسرعة من جوانب السماء وكأنها فى سباق لتتراكم وتجثم على صدر السماء ، وإذا المطر ينهمر فى خيوط طويلة ، وإذا منظر النهر يختفى وقد ابتعد عن العيون . والحقيقة أنه لم يبتعد بل حجبته خيوط المطر المنهمر وكأنها ستار .

بعد قليل تغير المنظر مرة أخرى ذلك أن السماء بكت ما شاء لها أن تبكى فتحولت خيوط المطر الداكنة إلى ما يشبه خيوطاً فضية ثم زجاجية ، وصار المنظر مضاء بنور ، وإن كانت السماء لم تنقطع عن البكاء ، وإن ظل منظر النهر مختفياً عن الأنظار تحت ذلك الستار الذى كان مربداً فإذا به الآن أبيض شفاف .

وقام الشاعر فى حركة عصبية ، إذ تحرك الغلام الذى كان

إلى جانبه مرة أو مرتين ، وكان الشاعر يشعر بنار ملتهبة فى جبينه فرئى وهو يسند هذا الجبين إلى زجاج النافذة يخفف من الحرارة التى يشعر بها فى هذا الرأس المستدير كالكرة ، ثم سند خده إلى زجاج النافذة ليتلقى شيئاً من برد الجو فى خارج القطار ، ثم عاد إلى مجلسه وتناول قلمه وقرطاسه وكان قد وضعهما فى حركته العصبية على مقعده ، وعاد يستوحى إلهة الشعر ولكن هيهات !

وأخذ المنظر ينجلى قليلا مما يدل على أن ستار المطر قد استشف ، وأخذ يبدو منظر تلال زرقاء فى أول الأمر ثم تحولت إلى لون أحمر هو لون التربة الصخرية التى تتألف التلال منها .

وأخذت مياه النهر تبدو بزرقتها وهى تجرى فى سرعة ، ولعلها تتعجل الوصول إلى مياه البحر وكأنما كانت على ميعاد .

وخفت سرعة القطار قليلا ، ودل ذلك على اقترابه من محطة ، وكان فى خفض سرعته ما يدل على وصوله إلى موقف هام ، فقد هدأ السير فى نوع من الرهبة والاحتفال .

ونظر الشاعر يمنة ويسرة وعرف أن القطار يقترب من مدينة كوبلنز فوقف وأنزل حقيبته من مكانها وفتحها فى عناية ، ووضع القرطاس وأقفلها فى عناية ، وأدخل القلم إلى جيب سترته ، ولبس قبعته وتناول فى يده الحقيبة وتحرك جسمه البدين يقطع

المقصورة . ولم ينس قبل تحركه أن يلقى نظرة على ذلك الغلام الذى كان فى رأيه سبباً فى أنه لم يوفق لنظم قصيدته العصماء . وكانت نظرته إلى الغلام المسكين فيها الكثير من الجفاء ! !

٣

قصة السجين

لم يكن يروى قصته لزميله الجالس أمامه وهو يصغى إليه كل الإصغاء ، ولم يكن يلقى قصته على الجندى الواقف فى حراستهما وقد أغمض جفنيه كى يشعر بأنه غير مسئول إذا سأله سائل عن سبب سماحه لهذين السجينين بالحديث ، إنما كان يروى قصته للطبيعة التى تحيط به ، وللسماء الزرقاء ، وللشمس التى كانت تلفحه بنارها والوقت ظهيرة ، وللجبال الجرداء الواقعة بين القاهرة وحلوان التى تتلون تارة باللون الأحمر وأخرى بلون بنفسجى ، والأرض الصحراء التى تتلألأ ببريق الآلاف من الأصداف والأحجار اللامعة ، إنه يبث أمره لا إلى مخلوق مثله بل إلى تلك الظواهر الطبيعية التى يرى من خلالها مجاهل الأبد .

مضت عليه سنوات سبع منذ اليوم الذى دخل فيه ساحة السجن وصار لا يمشى حتى يسمع رنين القيد ، وسيظل فى هذا السجن إلى القبر ولكنه تحمل آلام هذه السنوات بصبر لا يعدله

صبر . عرف بين رفاقه بالقوة الهائلة ، وكان يقوم بعمله الشاق ويمضى نهاره فى اقتطاع الصخر دون أن يشكو مرة أو يصيبه إعياء . سنوات سبع يكسر فيها الصخر بمعوله ، وكانت الضربة التى تنزل من المعول على الصخر الصلد إن هى إلا ضربة الانتقام التى يضربها القاتل لعدوه .

لا يدخل السجناء السجن حتى ينسوا شقاءهم وهم يجدون من تلك الحياة التعسة مخرجاً إلى اللهو والعبث ، فهم يتلهون بقصص ذنوبهم وبارتكاب ما يسميه الناس آثاماً .

أما هذا السجين فقد ظل هذه السنوات السبع لا يعاشر إلا نفسه ، ولا يعلم أحد سره ، حتى صار زملاؤه السجناء يخشونه ويرهبونه .

ولكنه وجد اليوم رفيقاً وقد جلس يرتاح قليلا فى وقت الهجيرة وثقلت نفسه بما يحمل من سر ، فباح بما تنطوى عليه الضلوع .

نشأت فى قريتى ، ولم أر منذ نظرت عيناى إلى ضوء هذا العالم أباً لى . ولدت يتيما وسط الأحزان . وقد توفى أبى قبل أن أدرج إلى هذا العالم ببضع شهور ، قيل لى إنه كان تاجراً وكان ينتقل بأحمال القماش من قرية إلى قرية ، وإن كسبه كان كبيراً أما أنا فلم أشهد منذ أخذت أفهم أمور هذه الحياة إلا الشقاء ،

وأى شقاء أكبر من أن تظل دارنا الحقيرة بغير وقود أياماً ؛ وأى شقاء هذا الذى يدفعنا فى أغلب الأيام أن نذهب إلى قصر سيد القرية كى نجد ما نتبلغ به ؟ على أن أمى كانت كبيرة المطامع وكانت تأمل أن ترانى يوماً فى غير مستوى الفلاحين وأن أصير كاتباً لدى على بك سيد القرية .

ورث على بك قريتنا عن آبائه وأجداده الشراكسة ، وجميع ما حولها من أرض زراعية ملك له . لذلك كان جميع أهل القرية فى خدمته . وكان رجلا رقيق القلب رضى الأخلاق يجد الفلاحون بما يظهرون من سذاجة وصراحة طريقاً إلى قلبه ونقوده.

ربيت فى حجر أمى وتحت كنف هذا السيد الذى بلغ الأربعين عند ما جئت إلى هذه الدنيا .

طمحت أمى إلى أن أكون كاتباً ، فما صرت غلاماً حتى أدخلتنى كتاب القرية . وقد يكون ما تعلمته فى هذا الكتاب كثيراً إلا أن المعلم كان يظننى غبيًّا وكنت أستفيد من دروسه دون أن يشعر .

ومما كان يزيده سوء ظن بى وببعض الصبية أننا كنا نقوم بالرحلات البعيدة إلى القرى المجاورة ، وكان يرافقنا أحمد ابن سيد القرية ، وكنا نعود من هذه الرحلات متعبين وقد اصطبغت وجنتا أحمد بلون الورد من تأثير الشمس والهواء والتعب ،

وكذلك نتأثر نحن وإن أخفت وجوهنا السمراء هذا الأثر .

شبت بينى وبين ابن سيد القرية بسبب هذه الرحلات صداقة متينة بل إننى أحببته حبًّا يختلف عن حبى لأمى ؛ فقد كنت أعطف عليه وأشفق ، والصبى لا يشعر بعاطفة الحنو والإشفاق نحو أمه . أما حب الأم نفسها فممتزج بالحنو والشفقة أكان ذلك لأنه هو الضعيف .

كنت أصغر سنًّا من أحمد ، ولكننى كنت أقوى منه جسماً وكأننى أكبر منه بسنوات عدة ، وشعرت بهذه القوة فنصبت نفسى له ظهيراً ونصيراً .

كان سيد القرية يرى إشفاقى على ابنه ، فكان يميل إلى ويكافئنى بالدريهمات ، وبدا له أن يرسلنى مع ابنه للتعلم فى مدارس القاهرة ، وكاشف أمى بذلك الأمر ، فرضيت أمى ، وبلغنى هذا الخبر فكان له فى تأثير كبير وسررت للخبر أكبر السرور . وكيف لا أسر لرؤية بلاد غريبة والعيش إلى جانب أحمد سيدى وصديقى ؟ أما أمى فلم أفكر فيها وقتئذ لحظة واحدة .

مضت الشهور حتى لم يبق على وقت الرحيل غير أيام ، وقد أثر فى السرور فصرت لا أنام إلا غراراً . وفى ذات ليلة استيقظت بعد نومى وفتحت عينى فى تثاقل ولم أكد أتبين من خلال أجفانى الأشياء حتى رأيت أمى فى لباسها الأسود جالسة ترنو إلى وتبكى .

فهمت تلك الساعة ما أسببه لها من الآلام بسفرى ، فأغمضت جفنى كى لا تشعر بأننى استيقظت ، وعزمت عزماً أكيداً على ألا أبرح جانبها ما دمت حيًّا .

صحوت فى اليوم التالى وكانت أمى قد بكرت بترك الفراش ، وما كدنا نجلس لطعام الصباح حتى جاءنا رسول يدعونا على عجل إلى القصر ، فسرنا إليه مهرولين وقابلنا سيد القرية فقبلت يده فابتسم لى وقال :

ــ أعد عدتك فإنكما تسافران اليوم .

قلت فى تلعثم : « كلا لست راحلا » .

فانقطع عن الابتسام وأجابت أمى على عجل : « أجل هو راحل يا سيدى » .

فقلت وقد ملأ الدمع مآقى كلا ! لست راحلا .

وانهمرت من عينى الدموع .

فجذبتنى أمى على عجل إلى الخارج وقد شعرت بالخجل والرهبة وامتزجت بتينك العاطفتين عاطفتان هما الأمل الذى تعقده على رحيلى والفرح الذى تشعر به لقربى .

كان حديثها مزيجاً من التأنيب والعتاب مع الترغيب والتسليم وكنت لا أجيب على حديثها بغير البكاء وقد أصررت على البقاء .

بقيت لأعيش عيشة الفلاح ، وانقطعت منذ ذلك اليوم

عن الدرس وقد حطمت بفعلى كل ما بنته أمى من آمال ، وقمت بالخدمة فى القصر أولا ثم بالعمل فى الحقل ثانياً ، وكنت أجد فى الحياة ما أغتبط به مثل أيام مجىء أحمد إلى هذه القرية . وأخذت هذه الأيام تقل سنة بعد سنة وكانت السنون تزيد التباعد بيننا وكنت لا أزال مقيماً على حبه وهو يعطف على وإن قل تحادثنا وتخاطبنا .

ماتت أمى بعد أن بلغت الخامسة عشرة من العمر بقليل ، فإذا أنا بعدها وحيد فى هذه الحياة . وأى حياة ؟ ! أتسمى حياة تلك التى يعيشها رجل يعمل طول يومه فى فلاحة الأرض بصبر وجلد ، حتى إذا كان الليل ألقى بجسمه إلى الأرض فإذا به يحلم بأنه يعمل فى فلاحة الأرض أيضاً أو هو ينام كالصخرة من التعب فلا يكاد يسترد قواه حتى يعود إلى عمل اليوم التالى ؟ ! حياة يعمل فيها الرجل طول يومه لكى يكسب حاجاته من قمح وذرة من مخزن سيد القرية . فإذا آن أوان قبض الأجرة لم يجد من نقوده الباقية مايكفى لشراء ما يستر جسده ! لقد هممت مرات عدة أن أهجر هذه الحياة وأنضم إلى جماعة من اللصوص . ولكن كان يمنعنى من ذلك أمران : ولائى لأسرة أحمد ، وأمر آخر : فتاة فى ريعان الشباب كانت خادماً فى دار سيد القرية . وكنا نراها صبية قبيحة ، فإذا هى لا تخطو تلك الخطوة بين

الطفولة والشباب . حتى تفتحت كالزهرة يبدو جمالها للعين . كانت نحيلة بيضاء لا يشوب لون بشرتها احمرار ، أشبه شيء بالنرجس . وكان لها عينان واسعتان سوداوان شديدتا السواد .. تلك هي الفتاة التي غلب غرامها على سائر مشاعري حتى لم تخل منها جارحة . بدأت أشعر بالحياة ، وأجد في هذه الحياة لذة بدل السآمة والملل .

كنت أخلق الفرص للذهاب إلى القصر فأنعم بمشاهدتها . ولم يكن لي في هذا الحب مطمع ؛ فإني دميم كما ترانى وقد قضى العمل في الحقول على كل أثر للشباب فلم تكن ترانى حينذاك إلا كما ترانى اليوم : جسم قد من صخر ، ووجه أسمر جعدته الغضون ، وكنت أرى أنها تخاف مني إذا دنوت منها . ولعل تلك النار التي كانت تتقد في ضلوعي إذا ما اقتربت منها لا تجد منفذاً إلا من عيني فتقدحان شرراً . فكنت إذا دنوت منها ازداد لونها امتقاعاً فتزداد في عيني بهاء .

كنت أحبها دون أمل فيها إلا أن أتمتع برؤيتها بين حين وحين . . .

أطلت عليك الحديث . أطلت الحديث لأني أخشى أن أقترب من نهايته .

صارت « خضراء » غاية حياتي . وكنت أكتم هذا الحب

فلم أبح به لمخلوق ، وحاولت أن أخفيه عن الخالق ولكن الخالق مطلع على القلوب وكذلك مخاوقاته الأزلية تعلم ما تكنه الصدور وإلا فلماذا أرى السماء والشمس والقمر والماء والأشجار كلها تبتسم لى وكأنها تحنو لى ؟ أليس ذلك لأنها هتكت ستر الكتمان ؟

كنت أكتم ذلك الحب ولا أبوح به لمخلوق . ولو عن لى أن أفضى لأحد بسرى لما وجدت غير أحمد رفيق صباى ولكن أحمد اليوم صار غيره بالأمس وإن كنت لا أزال له مخلصاً . هو الآن فتى فى مقتبل الشباب جميل الطلعة ممتشق القامة وإن كان نحيلا وهو الآن سيد وأنا عامل حقير من عماله ، ولكنه لا يزال يعاملنى برقة وعطف وإن ذهب عهد الطفولة الذى كان يسوى بيننا ، وهو الآن يكثر من زيارة القرية فقد انتهى من دروسه وهو يشارك أباه فى الأعمال .

دعيت ذات يوم إلى القصر ، وكنت أظن الداء أحمد فإذا بى فى مجلس أبيه وقد أظهر الحنو علىّ ، ثم تكلم كلاماً طويلا عن أمى وما كان من عطف أصحاب القصر عليها وعلىّ ، وأنهم يرعونني كما يرعون ابنا ، لذلك هم يفكرون فى أمرى دائماً ويسهرون على راحتى ويرون أن خير راحة لى بعد وفاة أمى هو الزواج . الزواج ؟ ممن ؟ هو يذكر اسم خضراء .

إنه يذكر اسم خضراء فهل أنا بحاجة إلى الجواب ؟ وهل هى

راضية عن ذلك ؟ أسألهم فيقولون إنها راضية وراغبة فيه . وهم يأتون بها ليسألوها وهى تهز رأسها علامة الموافقة وإن كانت الدموع تنهمر من عينيها فى سكون .

إنها دموع الخجل التى تعترى العذارى . أى سعادة أغدقت علىّ إغداقاً . أراد الله أن أتمتع بنعيم الحياة الدنيا فى تلك الأيام القليلة السابقة للزواج وبلغت ذروة النعيم فى يوم الزواج .

أجل ؛ كانت أياماً سعيدة تفتحت على أثرها أبواب الجحيم وأى جحيم أكبر من أن أراها زوجتى وملكى وهى مع ذلك تنفر منى كما ينفر الناس من الأجذم .

تنغصت حياتى فصرت أكره الذهاب إلى دارى ، وصرت لا أستطيع العمل وهمت أبحث عما يلهينى عن آلامى ، فوقعت فى زمرة سوء قادونى إلى مشارب الخمر ، فأقدمت عليها وصرت أتجرعها لأنسى الآلام .

فى ذات ليلة أضاعت الكأس رأسى ، فبحت لأحد الرفاق بآلامى ، وإذا هو يتكلم كلاماً لا أجتلى منه إلا الريبة ، فهل كانت دموعها يوم قبلتنى زوجاً دموع الإثم لا دموع الطهر .

أسرعت إلى الدار وعولت أن تكون تلك الليلة هى الفاصلة وقد كاد يتنفس الفجر ، ودخلت إلى غرفتها وهى نائمة فأيقظتها وأمضيت معها نصف ساعة لا أكاد أذكر ما ارتكبته من عنف

حتى انتزعت منها السر .

تركت الدار على ألا أعود ، ولكنى أينما كنت أذهب أرى الفلاحين يسيرون إلى الحقول فاندفعت أسير معهم إلى حقلى وأخذت أضرب الأرض بالفأس ضرباً يرن صداه فى الأجواء .

لم أعد أفكر فيما أعمله ، ولم أعد أرى شيئاً فى هذا الوجود ، كان يوماً جميلا سطعت شمسه على الكون ، ولكنى أجدها حمراء وأجد الأرض قد اصطبغت بلون أحمر .

لا أعلم الوقت الذى مر علىّ كذلك ، ولكنى أسمع حوافر جواد ثم وقوفه على مقربة ، وشعرت بأن إنساناً يترجل عن الجواد ثم هو يقترب منى وينادينى باسمى !

التفت إلى صوته ونظرت إليه حين وقف أمامى وهو يبتسم ، ثم مد يده اليمنى ووضعها على ، فجعلت أنظر إليه فى سكون ونظر إلىّ وإذا ابتسامته تغيض وتجف كما يجف ماء الحياة من الجسد المريض فرفعت ذراعى اليمنى وأهويت بالفأس على رأسه .

ضربته مرات لا أعلم عددها ، وظللت أضرب بفأسى جثته وإن كان قد فارق الحياة فى الضربة الأولى . ولست أروى لك ما كان من محاكمة وقضاء .

هذا حساب الدنيا وبقى حساب الله . . .

سكت السجين هنيهة وقد جحظت عيناه وقدحتا شرراً ثم

قال :

– أجل ! بقى حساب الله . وإنى لأستعجل ذلك اليوم الذى نأتى فيه جنباً إلى جنب . أتعلم ماذا أفعل إذن ؟

ثم ضحك ضحكة مروعة فيها صفير كصفير ريح الشتاء فى الليل البهيم وقال :

– إنى سأقتله مرة ثانية !

٤

مغامر

كان ذلك فى القطار الذى قام من روما قاصداً إلى فلورنسة ، وجلست فى مقعد مقصورة من مقصورات العربة ، وملأ مقاعد الخمسة الأخرى مسافرون آخرون أكثرهم من السيدات ؛ بل الواقع أنه احتل كل مقاعد السيدات ما عدا مقعدين . وسار القطار مسرعاً فى الطريق إلى فلورنسة ، وكان الجو حاراً والشمس ساطعة والسماء صافية زرقاء شديدة الزرقة ، يقطعها أحياناً قزع من السحاب الأبيض المتكاسل ، وهو يتخذ أشكالا غريبة ، فمن جسد نمر إلى رأس مارد ، وأحياناً تأتى فى الصفاء غمامة داكنة حزينة تجرى مسرعة ولا تلبث أن تغمر القطار بدموعها ثم تهرول فى طريقها ، فتعود السماء صافية باسمة . وكان المنظر يكاد يكون ثابتاً بأشجار الصفصاف الطويلة تمد أعناقها إلى السماء . وهو منظر يعتبر رائعاً فى أى بلد آخر غير هذه البلاد موطن الجمال الطبيعى . ولذلك كان الجالسون الستة لا يلتفتون إلى النوافذ إلا قليلا ، وأخذ الأصدقاء منهم فى حديث طويل .

كان الأصدقاء هؤلاء فتاتين دخلتا معاً إلى القطار ، وجلستا ساكتتين فى مبدأ الأمر ترقبان السيدتين الجالستين أمامهما فى انتباه ، وهما سيدة عجوز جاوزت الكهولة إلى الشيخوخة ، وسيدة نصف تشبهها ، فهى إما ابنة أو أخت صغيرة . ولا ريب أن الفتاتين كانتا ترقبان ملابس السيدتين وحلاهما بعين نسوية ناقدة ، ثم أخذتا فى الحديث بصوت خافت ، ثم ارتفع صوتهما شيئاً فشيئاً . وكيف يكون الحديث خافتاً ونحن فى إيطاليا !

لم أكن إلى تلك اللحظة مصغياً إلى تفصيلات حديثهما ؛ إذ كنت فى شغل بمطالعة بعض الصحف الإيطالية ، وآثرت قراءتها قبل أن يصبح الحديث عاماً بين المسافرين . ففى إيطاليا تتعذر القراءة فى القطار . ومضت ساعة ، وحدث ما كنت أتوقع ، وتجاذبت الفتاتان الحديث مع الرجل الجالس أمامى ، وكان هو البادئ بالحديث ؛ إذ أبدت إحدى الفتاتين ملاحظة ، فأبدى هو رداً ظريفاً مقابلا ، فكان ضحك ، وكان حوار .

رأيت أن حان الوقت لأترك جريدتى ، ولكنى لم أتركها فى التو ، بل اتخذتها حجة للتأمل فى الجالسين وفهمت فى الحال ماذا دعا الرجل الذى أمامى إلى التدخل ؛ فقد كانت إحدى الفتاتين صبوح الوجه ، وكانت الأخرى غزلة لعوبا . أما الرجل

فقد قدرت له من العمر ما يقل عن الثلاثين قليلا ، وهو ضخم الجثة متوسط القامة ذو رأس غزير الشعر بين الصفرة والحمرة . وكنت أظنه من الجنس الجرمانى او لم يكن يتكلم الإيطالية فى لهجة بعيدة عن لهجة الأجانب . وليس بمستغرب أن تجد رجلا أشقر فى إيطاليا ؛ فالشقر من الرجال بين أهل شمال إيطاليا كثيرون .

وانتبهت للحديث إذ كانت إحدى الفتاتين تسأله من أى موطن هو . وليس هذا السؤال فى إيطاليا إنكاراً لجنسيته الإيطالية ، وإنما هو سؤال عادى يقصد به معرفة الإقليم ، ففى إيطاليا لا تزال النزعة إلى استقلال الإقليم قوية .

أجاب الشاب : إنى من نابولى .

قالت الفتاة : نابولى ؟ لا أظن !

قال الشاب وقد أخذ يمد وينغم كلماته على طريقة أهل نابولى فى لهجتهم الثابتة : أؤكد لك أنى ولدت ونشأت فى نابولى ، وأعرف جبلها كما أعرف أعنابها . وأنت من أى وطن تكونين ؟ أجابت وقد ذهب منها كل شك : إنى من أهل فورلى وإن كنت أقيم الآن فى فيرنزى .

قال الفتى : إنها إقليم الورود ، لذلك كانت خدود الفتيات متوردة . ضحكت الفتاة وقالت : تبًّا للرجال !

سأل ضاحكاً : لماذا ؟

قالت : يأبون إلا العبث .

قال : إن الرجال يعبثون بالقول ، ولكن الفتيات يعبثن بالقلوب ، وضحك الجميع وشاركتهم فى الضحك .

وسألته السيدة العجوز : كم بقى من الوقت للوصول إلى فيرنزى أى فلورنسة .

أجاب : لا أعرف فإنى أنزل قبل ذلك .

وتدخلت فى الحديث : أظن أنه بقيت ساعة ونصف ساعة

قالت إحدى الفتيات : هذا كثير .

فقلت : ليس كثيراً مع أن القطار سريع .

وعندئذ تبينت أن الفتى كان يتطلع إلى منذ زمن وسألنى : وما موطنك أنت ؟

قلت له : مصرى . وحينئذ رأيت فى وجهه شيئاً من الإنكار وإن لم تغش عينيه تلك السحابة الخفيفة التى أخشاها . والتى تعبر عن شعور كامن فى نفس الأوربى ، عند ما يتبين أن مخاطبه من غير الأوربيين .

لم أر فى عينيه تلك السحابة وإن رأيت شيئاً يدل على الإنكار والحيرة ، ولكنه لم يجرؤ على أن يوجه إلى سؤالا كان يريد أن يوجهه .

قال : لقد أقمت فى الإسكندرية ستة أشهر ، وأنا أعرف مغانيها وأعرف لغتها . وقال بلغة عربية لا بأس بها : « سلامات إزيك ؟ » فأجبت : « الله يسلمك » .

وحينئذ لم يبق بد من توجيه سؤاله :

ـ هل أنت مسلم ؟

قلت نعم !

قال : هذا غريب !

قلت : وما وجه الغرابة ؟

قال : معذرة فإنى لم أكن أظن أن المسلمين يعرفون اللغات الأجنبية .

قلت : إذن فاعدل عن هذا الظن بعد الآن ، فنحن كالأمم الأوربية ، فينا من يعرفون وفينا من لا يعرفون .

ودار بيننا حوار رقيق فى جمال السيدات وتسلطهن ، وكنت قد عقدت العزم على سؤاله عن نفسه كما سألنى هو . فقلت له هل أنت حقًّا من سكان نابولى ؟

أجاب : ولم لا ؟ فسألته : هل أنت تاجر ؟ فأجاب إجابة مبهمة : فى مثل هذا النوع من العمل ، ولكنى كنت قبل الآن مؤلفاً ومن قبل فى أسبانيا ، وقد وضعت كتاباً عن تلك الحرب ، وأود أن أهدى إليك نسخة إذا قبلت الإهداء .

قلت : شكراً لك . فأخرج نسخة من كتابه وقال لى : ما اسمك الذى أكتبه فى عبارة الإهداء؟ وكأنه كان يود أن يتأكد للمرة الأخيرة أنى مصرى مسلم .

فأدليت إليه باسمى : « محمد عادل فاضل » فكتب عبارة الإهداء ثم قال لى : « الثمن عشر ليرات » .

فأخرجت نقودى وناولته الثمن ، وأخذت الكتاب وقرأت عنوانه واسمه « سنة بين الحمر » ، وجلست أقلب فيه لحظة ثم وضعته فى حقيبة ملابسى .

من ذا الذى يستطيع أن يفتح كتاباً فى فلورنسة ! إن فى كتاب الدهر غنى عن القراءة . فهذه المدينة من المدن القليلة التى لا يحتاج المرء فيها إلى مجهود فكرى كى يعود إلى الزمن الخالى أيام مديتشى وسافونارولا ، وعصور رجال الأدب والفن . فهنا موطن دانتى ، ومكيافللى ، وهنا موطن جيوتو ، وميكلانجلو ، ودوناتللو . لتقطع ساحة قصر الحكم ، أليس ذلك المكان الذى كان مسرحاً لحوادث فلورنسة وتاريخها ! ألا تتمثل فى الحال تلك المنصة التى أقيمت لإحراق سافونارولا ، ذلك الراهب الطاهر الذى دانت لدعوته المدينة فحكمها بيد من حديد وهو يعمل للإصلاح ، ولكنه نسى أن خطبه الخلابة لا يمكن أن تخضع الناس وتقلب المدينة بيعة كبيرة واحدة ، وهى مركز

الثراء والترف والفن ، ونسى أن الدين والزهد والتقشف شيء ، والكنيسة بعزها وسلطانها وثرائها شيء آخر .

إنك لتسير فى أضيق منعطف وتدور حول أظلم زاوية فلا تجد إلا ما يذكرك بتاريخ حافل أو باسم خالد . وتلك الآيات الفنية الملقاة فى الشوارع إلقاء ، هل تجد ما يماثلها فى أى مكان آخر ؟ فأى كتاب أدب تقرأ لتدع مرورك على الجسر القديم مرتين وثلاثاً بل مائة مرة ! وأى كتاب تقرأ لتدع نزهة إلى سان منياتو أو زيارة لقصر بيتى أو معرض الصور فى الأوفيزى !

لنختر مدينة أخرى للقراءة ؛ فما كانت فلورنسة بالمدينة الصالحة .

الواقع أنى ما وطئت أرض فلورنسة حتى نسيت الكتاب وصاحبه ولم أذكره إلا بعد نصف شهر ، وكنت قد انتقلت إلى مدينة بيروجيا القديمة وشبعت من التفرج على آثارها واستيحاء تلك الانتقامات الدموية بين أسرها .

كان اليوم حارًّا بالرغم من علو المدينة وجثومها فوق قمة جبل . وقد تناولت طعاماً شهيًّا من المكرونة والشواء ، وشربت قدراً من نبيذ الإلياتكو ، ثم ذهبت إلى غرفتى فشعرت بالنعاس فنمت قليلا ، واستيقظت وأنا أشعر بأنى أصح ما أكون . وبين يدى من الزمن ما بعد الظهيرة بأكمله فماذا أفعل ؟

قد أستطيع أن أذهب إلى متحف أو كنيسة ، وأستطيع أن آوى إلى دار كتب الجـــامعة ، وأستطيع الجلوس فى قهوة أتناول من المثلجات ما لا يوجد مثله فى بلد آخر . لا ! إننى أريد قبل كل شىء الهواء والنور ثم لا مانع بعد ذلك من القراءة فمددت يدى نحو الحقيبة وتناولت كتاباً من الكتب القليلة التى أحملها معى وكان هو كتاب رفيق السفر .

سرت الهوينى لأختار مكانى على مقعد حجرى عند السور القديم الذى ينتهى ببناء الجامعة . جلست أنظر إلى الوهاد العميقة ترتفع وراءها الجبال والمنظر تحجبه غلالة شفافة من ضباب أزرق ، ثم بدأت أفض ورق الكتاب وأقرأ تارة وأتأمل فى سكون إلى المنظر أمامى تارة أخرى .

لم يكن الكتاب كبير القيمة ؛ فهو يحتوى على تفصيلات عدة عن مختلف الفرق التى كانت تقاتل وتناضل فى الحرب الأهلية بأسبانيا من أجل مبدأ الجمهورية أو الشيوعية أو الفوضى أو إن شئت اللادينية ، وما بين هذه الفرق من تنافس وتناحر وهى أمام العدو المشترك . والكتاب يحتوى على حشد من المعلومات ، ولكنه كتاب ميت لأنه كتب بلا عقيدة ؛ إذ الكاتب لاهم له إلا أن يتلمس نقائص هؤلاء الجمهوريين الذين سماهم الحمر ، مع أنه منضم إليهم . وهو يفعل ذلك لأنه يريد

أن يعيش ويكتسب فى أرض إيطاليا وفى ظل الفاشست . ولا أعتقد أنه كان أكثر إخلاصاً للفاشية !

على أن ما استرعى انتباهى بنوع خاص هو المقدمة التى أهملت قراءتها فى مبدأ الأمر ، فإذا لم يعجبنى الكتاب عدت إليها : « كنت وأنا هولندى ، أعيش فى باريس كمئات من الشريدين أمثالى الذين يأوون إلى تلك المدينة وقد عضنى الجوع وضاقت بى سبل العيش ، فإذا بمن يغرينى بالمال فأذهب معه إلى أحد المكاتب العديدة المنتشرة فى باريس ، وأنخرط فى سلك المتطوعين للقتال مع الحكومة الجمهورية القائمة فى أسبانيا » .

فى هذه العبارة فقط رنة الصدق بين جميع آراء الكتاب ، وحينئذ تمثلت لى صورة ذلك الفتى الهولندى المغامر بوجهه المكتنز باللحم وشعره الغزير بين الصفرة والحمرة وجسمه القوى الضخم ، وذلك الهولندى الذى عاش فى باريس ، ولعله زعم أنه فرنسى ؛ ثم ذهب إلى أسبانيا ثم تركها وجرب الحياة فى مصر ، ثم هو فى إيطاليا بزعم أنه إيطالى ومن أهل نابولى . وفى كل هذه الأحوال يتشكل للحياة مغامراً غير عابئ . ما هو غرضه من مثل هذه الحياة الخطرة : الغنى والثروة؟ أم لذة الأخطار نفسها ؟ ربما كان هو نفسه لا يعرف مرماه . ولعل مثل هذه الحياة المليئة بالتقلبات هى أكبر غنم فى الحياة نفسها .

ودارت فى خلدى خواطر أخرى ومسائل لا تقل خطورة عن لغز الحياة والموت ، وإذا بى أنتبه فجأة إلى الشمس وهى تغيب من وراء الجبل وقد خنقها الضباب فلم يظهر غير قرصها دون الشفق ، وقمت ألتمس مخرجاً من أفكارى التى أخذت تظلم من جوى النفسانى بأن أقصد إلى القهوة لأجلس بين الناس وأترشف شراباً ذا مرارة !

٥

ليلة فى فرسوفيا

فى إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة فى القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويجثم على قلوب الناس هم من السعير الملتهب ، وفى تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ فى سماء ألمانيا ، بل فى تلك السنة التى استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعنى سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين فى جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بثكنة لكنه كان فى الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ، لأنهما كانا واثقين فى سيرهما ، ويسير إليها الآخران واثقين فى الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبللها المطر ، فى تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا فى القاهرة ، ولا فى برلين بل فى فرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة فى سماتهم مزيجاً عجيباً من بنى البشر . ثلاثة

قصرت قاماتهم على تفاوت فى القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت فى الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربى مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشىء من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متكوراً . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضاً ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن شعره كان غزيراً ، فهو حليق اللحية . ولكن الشعر ترك أثراً أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة. أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر فى هذه المرحلة يستجيب إلى الهواء فى سرعة أو صعوبة ، فهو إذا عبث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التى هى دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غريبان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون — أجل — ولكن فى بياضه حمرة عميقة قلما تشاهد فى أهل الشمال من أوربا ، وهى إن شوهدت هنالك ، اتخذت بريق طيف من أطياف اللون الأحمر التى نراها فى الخمر الأوربية وفى النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة

وجهه . أما هذا اللون فى هذا الرجل فكان فيه شىء آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التى تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولى إلى روما ، أو تلك الأراضى الساحرة القائمة حول خليج سورنت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقة السماء تغشى الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلى الأرض الأرجوانية . ويزيد فى جمالها ذلك الدخان الأبدى المتدفق من المارد الرابض فى جوف الأرض . أو ربما كان ، إذ لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربى فى الجنوب من أوربا أيضاً ،إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذى عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربى إذا ما رأى شخصاً قريباً إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر إلى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعره ، وقد وضع على عينيه منظاراً يخفى لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التى عرفت الفراعنة ، فلونه الأسمر

مزيج من اللبن والبن ، وجسده الممتلئ يوحى بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون فى ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع ، بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء فخم شاهق ، أول ما يلفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور قصير ، وفى هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور فى الجانب الآخر وتبعهما المصريان ، فإذا النهر يجرى تحت تلك الساحة ، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة ، وأسرع المضيفان فطلبا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا » ؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التى تكاد تكون روسية فى مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا ، وأربعة أقداح ، وجلس الأربعة إلى الشراب ودار بينهم الحديث.

كان هذا البناء الفخم نادياً لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون ، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى كانت أنغام

الجاز تترامى إليهم بطيئة ساحرة أحياناً ، أو سريعة أخاذة فإذا هى تانجو أو فوكس تروت أو رومبا . وأخذت الفودكا تتمشى فى مفاصلهم سريعاً ، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شيء بدفء إفريقية ، ولمعت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم ، وبدأ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة ، وغابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الإنسان ساعات أسعد من تلك التى ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعاً ؛ إذ لم تكن بهم رغبة فى البحث العميق ، ولم ينتظم غير ملء الأقداح كلما أفرغ أحدهم فى جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين : هيا بنا . وقام المصريان — فى شيء من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجف ، فسارت بهم على مهل فى الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة. ربما سارت فى ذات الشوارع التى اخترقوها ، ولكن كيف يعرفها الأجنبيان ؛ إذ لم يقيما فى العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام .ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولهما غلالة شفافة لا تكاد تتميز منها الأشياء ، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هى بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس ، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا فى طرقة طويلة سلموا فى آخرها معاطفهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية فى الأناقة ، صفت حولها موائد للجالسين ، وفى وسطها مكان فسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكى ضوء القمر فى هدوئه وفى خفوته ، وكان هذا النور الخافت يترامى فى مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم فى قبة الردهة التى كان لونها أزرق صافياً يحاكى لون السماء . وكانت الموسيقى تعزف رقصة تانجو ، فى حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست فى الصف الأول من المتفرجين ، فجميع الموائد فى ذاك الصف كانت مشغولة ، وجاءت فى الحال زجاجة الفودكا الكبيرة والأقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هذه الخمر الشديدة ، ولكنهما فى سبيل مجاراة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الخمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا .

امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يجيلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال فى ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء فى أغلى الثياب وأبدعها زيًّا . على أن العجيب فى هذا الجمع أن أجمل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين فى السن ، ابيض شعر رءوسهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات فى الزينة والثراء ! إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغباتهن فى المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابهم فى جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور ، وستجد دائماً رجالا أثرياء يتمتعون بشباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمراً بحيث رانت على أبصارهم غشاوة من أثر الخمر ، وكأنهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمزيد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على

عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ، ولم يكن ليستطيع أن يحول نظره وبقية أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر ، إلا إذا التفت قليلا إلى الخلف . كان الرجل بديناً ذا رأس أملس إلا من حفاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشة ، وقميصه وياقته غاية فى النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غضنت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما فى أسفل الرقبة . وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة ، ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق وتعرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر ، وهو ظهر جميل فى تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصرى لعل هذا الظهر هو الذى سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخن سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الكأس اللامعة ، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلاً ، وقد وضعت رجلا على رجل وأخذت تدخن سيجارة . وأمامها الكأس .

كان ظهرها فى جماله وانحنائه القليل كأنه يتكلم . إنه لا شك يعبر عن سأم ، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات

الليلية ؛ فهى مسكن يقيها شر التفكير فى حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يشعر بالصحة ؟ إنه يخفى الألم الكامن .

كانت المناظر تتتابع ، فمن راقصة تكاد تكون عارية تعرض فنها ، إلى مغن هرم حسن الصوت ! كل منهما يعرض فنه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذا السيد لم يقم بمراقصة زوجته أو صديقته ، واستمرا جالسين : هو يدخن سيجاره ، وهى بظهرها الحلو الجميل المنحنى قليلا ، تدخن سيجارة أو ترتشف جرعة من الكأس . وليس ثمة شك فى أنه لو طلب إليها المراقصة لانتصبت بقامتها الهيفاء ، ولحاصرت هذا الجسم البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل المخمور لا يزال ينظر إلى الجسم البدين ، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحنى قليلا يمثل السآمة والملل ، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدثه الحرير من تغيير أوضاع الجلسات بين مئات من النساء ! لا ريب فى أنهن أخذن ينتبهن للعرض باهتمام .

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولكنه قصير ، يرتدى ثياباً زرقاء على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير الأزرق الفاتح البراق ، وهو جميل

الصورة جداً ، غير أن كل حركة فى جسمه تنم عن رجولة .

وعزفت الموسيقى فى قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثنى على ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقى خاطفة وقصيرة ، وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .

لم تمض فترة حتى عادت الموسيقى إلى عزف رقصة روسية من نوع « الجوباك » وعاد الفتى إلى الرقص ، وكان سريعاً ورشيقاً وقوياً ، وكان اهتمام النساء واهتمام الظهر الجميل بادياً للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً من غشاوة الخمر .

وعلى حين فجأة ، وأثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى فى أرجاء المكان صرخة امرأة وشهيق . . .

وهب الجالسون الأربعة ، إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهرول الأربعة إلى الخارج يترنحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان والخمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هى الصارخة !

٦

القسم

ظل حسين يفكر ويجهد فكره ، عساه يجد حلا لما هو فيه. ولكن أتراه مهتدياً إلى هذا الحل ؟ لقد اختلطت الآراء فى ذهنه فلم يعد يميز منها ما هو صالح . وكان كلما أطال التفكير أشكل عليه الأمر ، والدقائق تمر سراعاً فإذا هى ساعة ثم ساعات ، وقد اقترب الموعد .

ما ضره لو أنه نجح فى الابتعاد عن والده الهرم ساعة دنو أجله ؟ لقد حاول ذلك ، وكان فى الأيام الأخيرة يهجر الدار ولا يعود إليها إلا متأخراً . ولكن والده الهرم ألح وألح فى أن يراه وهو على فراش الموت ، فدخل الغرفة مكرهاً ، وكان يشفق من أن يرى ذلك الشيخ فى صراعه الأخير ، ويذكر كيف كان يخشى أباه وهو لا يزال صبياً ، ويعظمه تعظيما لا يشعر به لغيره ويتمثل فيه القوة . كان يذكر ذلك ، ثم يذكر كيف رآه فى السنوات الأخيرة وقد تحول من شيخ عاقل إلى صبى لا يميز الأشياء ، فكان يتألم أشد الألم ويحاول ألا يرى والده مهدماً مغلوباً

على أمره فى ساعته الأخيرة . وود لو أنه حيل بينه وبين هذا المنظر ولكن الشيخ ألح فى طلبه .

لقد دخل الغرفة المظلمة وجلا ، ودنا من السرير فى هدوء ، وإذا به يرى والده فى غير ما ظنه به ، فهو ينظر إليه نظرة العاقل ، بل كان فى عينيه بريق غريب يستشف ما وراء الحجب .

رأى الوالد المحتضر ولده قادماً ، فمد يداً إليه . فأسرع الابن واحتضنه فى رفق بين ذراعيه ، فشعر بحاسة غريبة لرؤية والده وقد عاد عقله إليه : شعر بحاسة هى قريبة من الفرح لو لم يكن يعلم علم اليقين من الطبيب أن والده فى الرمق الأخير .

قال الوالد فى صوت خافت ولكنه مسموع : أصغ إلىّ يا ولدى ، هذه هى ساعتى الأخيرة ، وأنت تعلم ذلك ولا حاجة بك إلى الإنكار ، وإنى لا أريد أن أودع هذه الدنيا دون أن أطلب منك أمرين ، وأرغب فى العمل بنصيحتى فيهما ، وأريد أن تكون صريحاً معى ، فإما أن ترفض رأى أبيك ، وإما أن تعقد معه عهداً يحاسبك الله ويعاقبك إذا لم تف به .

أجاب حسين فى سرعة : إنى طوع أمرك يا أبتاه فقاطعه الوالد قائلا : كلا لا تعجل قبل أن تسمع مطلبى : أذكر أنى رأيتك ذات مرة فى حال لا أرضاها لك . . . لا تقاطعنى ستقول

إنها المرة الأولى والأخيرة وأنا أعلم ذلك ، ولكنى لا أطمئن لما سيكون فى مستقبل الأيام . أريد أن تقسم لى ألا تشرب الخمر أبداً .

— أقسم بالله العظيم لا أذوقها ما حييت .

— وأريد أن تقسم لى أن تبتعد عن الفتاة التى كانت والدتك تؤنبك على تعلقك بها فى غرفتى فهل تفعل ؟

انتفض حسين لهذا الطلب ، فلقد ناقش والدته وحاورته وهما يظنان أن الشيخ خرف لا يعى شيئاً ، ولكن كيف له أن يمتنع والشيخ يحدق إليه يقرأ أفكاره ؟ فليكن أمر الله ! لم يكن سكوته غير لحظة ثم قال فى لهجة التوكيد « أقسم بالله العظيم » .

مضى شهر على وفاة الوالد دون أن يفكر حسين فيما حدث فى تلك الساعة العصيبة ، ولكنه فى صباح اليوم تلقى رسالة من فتاته ، فصار فى حيرة شديدة لا يدرى ما هو فاعل ، وكيف السبيل إلى الوفاء بالقسم .

عرف حسين فاطمة وعرفته مصادفة : ذلك أنه كان يتنزه فى الجزيرة مساء يوم من الأيام الحارة التى تعرفها مصر ربيبة الصحراء ، وبدأ يهب نسيم المساء فكاد ينسى الناس ما قاسوه فى يومهم ، وهدأت الطبيعة فكأنها هى أيضاً أعياها حر اليوم حتى أمست لا تقوى عن التنفس ، ثم شعرت بهذا النسيم فهى

ساكنة مخلدة إلى الراحة تحاول أن تسترد قواها . وانتشر بعد مغيب الشمس وبعد الشفق الأحمر لون أخضر يبدو فى الأفق من حيث غابت مركب الشمس ، ثم هو يختلط فى كبد السماء بالزرقة المسودة التى غطت الجانب الآخر ، ورصع هذا الجانب من السماء بالنجوم المتلألئة .

وجد حسين فى هذا السكون لذة ، فسار على مهل فى طريق مهجور ، واستسلم لأفكاره وترك الأحلام تمرح فى خاطره ما تشاء . وبعد أن قطع نصف هذا الطريق ، وهو مطمئن إلى أفكاره ، متنعم بلذة الوجود ، تنبه فجأة لوقع أقدام تطأ الأرض بخفة ، فالتفت وراءه فإذا فتاة مصرية غضة الشباب نحيلة القوام تسير أيضاً فى هذا الطريق .

تمهل حسين فى سيره وأخذ يحاول أن يتبين وجه الفتاة ، فرأى وجهاً غير كامل الحسن ، لم يكن كالبدر كما يحب أن يصف الشعراء ، بل كان وجهاً مستطيلا ، وفى أنفها شىء من الطول ، وكانت عيناها صغيرتين إلا أنهما تتلألآن بضوء يكاد يشبه ضوء الكواكب ، وكان فمها صغيراً ولها شفتان رقيقتان هما دائماً فى رعشة خفيفة كأنهما تستوحيان القبلات .

ارتاحت نفس حسين لمنظر هذه الفتاة ، فسار إلى أن حاذاها عازماً على أن يكلمها بأية وسيلة . ولسنا نريد أن نقص

كيف بدأ الحديث ؛ فإن حسيناً لا يذكر كيف كان ذلك . ونحن لا نود أن نفضح سرهما ، ولكننا نقول إننا رأيناهما يسيران جنباً إلى جنب ثم كانا بعد نصف ساعة فى سيارة تسير بهما سريعاً إلى حيث مسكن الفتاة .

عرف حسين فى هذه الزيارة وفيما بعدها شيئاً عنها ، وفهم السبب فى سكناها منفردة ولم يك ذلك سرًّا غامضاً ، فهى يتيمة الأبوين ، ولها أخ متزوج يعمل فى إحدى المدن الأخرى وهو فى شاغل عنها بأسرته ، وكانت تشتغل بالتعليم فى إحدى مدارس الدولة .

أصبح حسين يجد لذة فى معاشرتها ويكثر من التردد عليها . وكانت الفتاة تجتهد فى إرضائه ، فتغيرت اللذة الجسدية التى وجدها فى زيارته الأولى وما تلاها من الزيارات وتولدت إلى جانبها عاطفة روحية كان مثارها الشفقة لما تسلط على ذهنه من براءة الفتاة وتعاستها وانفرادها فى هذه الحياة ، فإذا هو بين اللذتين الجسدية والروحية لا يجد سبيلا إلى فراقها ، وإذا هو يفكر فى تقوية الرابطة التى تربطهما . وأية سبيل إلى ذلك غير السبيل التى تواضع عليها الناس وسموها عقد القران !

ذلك ما كان يفكر فيه ، وما ذاع عنه حتى بلغ مسامع والدته ، فأخذت تؤنبه على عزمه . وكان ما كان من وفاة أبيه

بعد أن أخذ عليه عهداً وأى عهد ! قسم أمام سرير الموت ! وهو الآن يتلو رسالتها بعد أن مر شهر على وفاة أبيه ، وهو يفكر فيما يفعله وكيف يبر بالقسم .

ليس من سبيل إلا أن يقابلها ويشرح الأمر ويبين لها أى عهد قطعه عند ما أقسم ألا يذوق خمراً وأن يقلع عن حبها .

كانت الساعة قد بلغت السابعة مساء وهو فى الطريق إلى دارها ، وكلما اقترب من الدار يود لو أنها لا تزال بعيدة .

أخذ يفكر فيما سيحدث ، وكيف أن الفتاة ستبكى وتنتحب حين تسمع حديثه . وكيف تتعلق بأذياله ، وحينئذ ليس عليه إلا أن ينهض كالرجل الشريف الذى يبر بقسمه ، مغالباً أى إحساس آخر ، وينصرف من تلك الدار إلى غير عودة .

كسبته هذه الفكرة الأخيرة شيئاً من الاطمئنان لعله نتيجة حاسة خفية نفسه ، هى الشعور بضعف الفتاة فى تلك الساعة ، وقوة الرجولة التى يقابل بها هذا الموقف الحاسم .

استولت هذه الحاسة على أفكاره ، فما كاد يقرع الباب حتى كان رابط الجأش .

وفتحت له الباب فلم يقع نظرها عليه حتى ارتسمت على وجهها علائم العطف والألم ، فدخل صامتاً وسارت خلفه

صامتة ، واتخذ مقعداً ، فجلست قريباً منه تتفرس فى وجهه ، وهو يدور بنظره إلى كل جهة إلا جهتها .

وسكتت مدة قصيرة ثم كانت هى البادئة بالحديث :

ــ لم أر نفسى فى حاجة لإبلاغك حزنى ، ولست أنت فى حاجة إلى ذلك .

فأجاب فى صوت حاول أن يجعله هادئاً ، وتأبى العواطف النفسية إلا أن تلعب به كما يلعب الهواء بالنار : « أعرف ذلك » ثم لم يستطع المزيد .

قالت وهى تحدق إلى وجهه كأنها تستطلع كنه اضطرابه : « إننا دائماً نتشاطر الأحزان كما نتشاطر السرور . ولقد ظننت أنك سوف تسرع إلىّ وفاء بهذه المشاطرة ، فإذا بك تأبى إلا أن تستأثر بأحزانك فلم أر بدًّا من الكتابة » .

هب حسين فجأة واقفاً فى حركة عصبية عنيفة ، وصاح « فاطمة ! لن نتشاطر شيئاً بعد اليوم » .

فانتفضت واقفة هى الأخرى وقد أدركت ما يقصد بهذه العبارة ، بسرعة لا تكون إلا عند النساء فى هذا الموقف ، وأجابته فى صوت متهدج من الغضب تخالطه السخرية : « هذا خير لى ! » .

كان لصوتها وثباتها تأثير السهم فى أحشائه ، فصاح : « فاطمة ! فاطمة ! » وأتمت كلامها مرددة « هذا خير لى إذا

سار كل فى طريقه من هذه الحياة » .

صاح حسين وقد غلبه الضعف : « فاطمة ! لو تعلمين ! لقد أقسمت قسماً عظيما . . . ومع ذلك . . . ومع ذلك . . . إنى على استعداد لتضحية هذا القسم . . . » وتقدم ليأخذها بين ذراعيه ولكنها حالت دون هذا قائلة : « كلا ! كلا ! خير أن يسير كل منا فى طريقه ! وإذن وداعاً ! » ومدت إليه يدها فما قبض عليها حتى كانت تسوقه بها نحو الباب إلى أن خرج منه ، ثم أغلقته خلفه .

سار حسين تائهاً يمشى على غير هدى ووقفت حركة ذهنه ، فهو يرى الناس ويرى الأشياء كأنها غريبة عنه ، تتراءى له مناظر الطريق وتمر به كالأحلام ، سار فى الشوارع والطرقات لا يقصد شيئاً ولا يشعر بوقت ، ووقفت حركة ذهنه إلامن خاطر واحد كان يتردد ويتكرر : لماذا عمل بالقسم ! ما ضره لو أنه حنث فيه ! أما كان يكفى والده أنه لا يقرب الخمر ؟ !

سار يدور فى الشوارع ولا يشعر بما يمر من ساعات ، وكانت صورة فاطمة تتمثل أمامه ثم تختفى ثم تعود .

لعبت به ساعات الزمن وهو لا يدرى ما يفعل ، ثم انتبه نوعاً ما إلى ما حوله من حياة ، فإذا به جالس على مشرب يكاد

يخلو من الناس ، ووقف أمامه الخادم ينظر إليه فى أدب ويحاول أن يخفى دهشته . قال الخادم :

ماذا يطلب سيدى ؟

ـ أطلب ! أطلب ! اعطنى قهوة .

وما كاد يبتعد الخادم قليلا حتى برقت عيناه بخاطر فى ذهنه ثم صاح وراءه فجأة :

ـ لا تأت بقهوة هات لى شراباً . . . من أى نوع . . . ! على أن يكون خمراً !

٧

حلم

سارت السيارة الصغيرة سريعة خفيفة رفيقة براكبيها ، كأنها تسير على وجه الماء ، فإذا اعترض سيرها وسرعتها عارض اهتزت فى رعشة ملؤها الحدب على الراكبين ، ثم تجلدت واستمرت فى سيرها ، تقوم بما فرض صاحبها عليها القيام به ، مخلصة جاهدة. ولم تكن تلك الرعشة تلم بها إلا نادرا . فهى تسير فى طريق ريفية ، ولكنها ممهدة كخير ما يكون التمهيد . فتلك طرق شقت ومهدت فى أرض الحقول الإيطالية التى تحيط بمدينة روما ، مهدتها حكومة تهدف إلى العمران قبل كل شىء .

كانت حرارة الجو سائغة لدى الراكبين ، وإن كان الشهر من شهور الصيف ، التى يبتدئ فيها ساكنو روما فى الرحيل عن مدينتهم الجميلة قاصدين المصايف . ولكن الراكبين كانا من بلد إفريقى ، وقد اعتادا جوًّا أشد قسوة فى الصيف ، فكان الجو وقتئذ لديهما بمثابة الأيام الجميلة فى بلدهما فى أواخر فبراير وشهر مارس .

وكان المنظر الذى يتجلى ويتغير أمام ناظريهما عجيباً فى تحوله وتغيره، حتى ليبدو حلماً من الأحلام . فهما منذ غادرا شوارع المدينة الضيقة ذات الأرصفة المكتظة بالناس ، ومنذ تركا وراءهما تلك الخرائب الرومانية العظيمة وقطعا أرض شارع الإمبراطورية يشرف عليهما من اليمين بناء الكوليزة ، وسارا فى طريق ألبانو ، انقطعا عن عالم الضجيج رويداً رويدا ، وانتقلا إلى أرض منبسط أكثرها تبدو فى جوانبها عند الأفق تلال بعيدة قليلة الارتفاع ، زرقاء اللون ، كادت تختلط بالسماء لولا أنها داكنة ، على حين كانت السماء زرقاء صافية يضفى عليها الضوء غلالة ذات بريق ، ويزيد فى زرقتها قطع من السحاب ناصعة البياض ، لم تقف ساكنة بليدة ، كما يفعل السحاب فى بعض أيام الصيف حين تكون الرياح ساكنة ، بل كانت على سكون الرياح تتسابق فى السماء الصافية الزرقاء ، وتتخذ أشكالا غريبة مما يزيد فى جمال المنظر ويحدث فيه تأثيراً هو أقرب إلى الأحلام.

كان راكبا السيارة رجلين ، أحدهما فى آخر مرحلة الشباب ولم يقدم بعد على الكهولة ، والآخر قطع مرحلتى الشباب والكهولة ، وولج برأسه إلى مرحلة الشيخوخة ، فرأسه أصلع عار من الشعر فوق جبينه ، ومجلل فى جوانبه بشعر أبيض قصير . وكان الأول يقود السيارة وهو صاحبها ، وهو الدليل فى هذه

الرحلة ؛ وكان الثانى لا يعرف إلى أين يذهبان . قال الشيخ :

إلى أين نسير ؟

قال زميله مداعباً متهكما :

— إلى نزهة قصيرة .

وابتسم الاثنان ، وسارت السيارة بهما فى الطريق التى رسمها السائق تشق سبيلها بين المناظر المتغيرة فى غير عنف ولا مفاجأة ؛ فالأرض التى حولهما ليست جرداء ، بل هى ذات زرع ، تنبت فيها هنا وهناك أشجار باسقة ، ولكنها لا تطغى على الأرض حتى تؤلف غابة أو حرجا . وهنالك مزارع ، ولكنها ليست واسعة بحيث تكون على وتيرة واحدة. وهنالك سهل لا يخلو من المرتفعات. وثمة مرتفعات ولكنها لا تبلغ من الارتفاع حداً يضيق بمرمى النظر ؛ غير أن الأرض تغلب عليها حمرة تظهرها فى لون كلون الشفق ، وتحنو على الأرض السماء فى حلتها الزرقاء اللامعة . وعلى حين فجأة لاحت من بعيد فى وسط الأرض الحمراء قطعة من الزرقة اللامعة ، كأنها اقتطعت من السماء وبسطت على الأرض . فقال صاحب السيارة :

— هذه بحيرة نيمى .

نيمى ! أية تذكارات غريبة احتفظت بها هذه البحيرة ، وكشف عنها الباحثون فى الأزمان الحديثة ! هذه هى سفينة

كاملة كان يتخذها أحد براطرة الرومان مسكناً ومتنزهاً أخرجها الباحثون من أعماق المياه ، وهى الآن ماثلة للعيان على حافة تلك البحيرة الأبدية ، ترجع بعين البصيرة إلى ألفى سنة مضت إلى ذلك الإمبراطور الشاب جاليجولا أو الحذاء الصغير ، كما كان يلقبه جيش أبيه تحبباً ، ذلك الذى خلف طباريوس الإمبراطور الغامض ! وهو الإمبراطور الشاب الذى رحب به الشعب ، وعقد عليه الآمال الكبيرة ، وأخذ هو يحقق تلك الآمال ، وإذا هو يصاب بمرض يقوم من بعده وحشاً كاسراً فيقتل كل من يقع تحت طائلة ظلمه ، بل يقتل كل من كان جديراً برعايته إذا لم يراع غيره من الناس ؛ قتل جميع من أخلصوا له أو أمرهم فقتلوا أنفسهم وقتل أهل بيته وزوجته ، بل قتل أمه ، وظل يفتك بمن حوله إلى أن ائتمر به جنده وثاروا عليه وقتلوه للتخلص من طغيانه .

هذه هى السفينة التى كان يقضى فيها الإمبراطور الشاب بعض وقته يخلد إلى الراحة. وهل يجد راحة من مرضه الملح ! لقد يشعر المرء فى هذا السكون بالرغبة فى أن يخدع نفسه ، ويعتقد أن الإمبراطور الشاب يجد حقاً شيئاً من الراحة فى هذه السفينة تمخر به فى هذه البحيرة الوادعة وبين هذا السكون الشامل ، وفى هذه الراحة يجد أتباعه وخدمه شيئاً من الدعة ، وفيها يدخل

إلى نفسه شيء من الرحمة . ويريد المرء أن يعتقد أنه كان ينسى قسوته ، وأنه كان يرى أن القسوة جزء من أعباء سلطانه فيخلعها حين يخلو إلى خاصته وصحابه وغانياته فى هذه السفينة . ولكن من يدرى ! ربما ذاق أجداد أسماك هذه البحيرة طعم اللحم الآدمى فى يوم من الأيام ، وعرفت أسماك تلك الأيام كيف تفرق بين لحم الشيخ ، وبين طراوة لحم الفتاة .

تأمل الزائران مليًّا هذه السفينة . ثم سارا إلى المتحف الذى أقيم على حافة البحيرة لأجزاء السفينة ومحتوياتها ، فإذا أشبعا فضولهما من رؤية هذه الآثار عادا إلى السيارة ولوى صاحبها عنانها ، فعادت تسير بهما سيرتها الأولى تنهب الطريق بهما نهبا.

ولم يكونا يتحادثان إلا قليلا ؛ فكلاهما يقدر لذة الصمت والسكون ، وكلاهما يعرف أن ما يجيش فى خاطره فى أكثر الأحيان يكاد يكون قريباً مما يجيش فى خاطر صديقه .

كان صاحب السيارة قد رأى هذه الأمكنة من قبل ، فهى ليست جديدة عليه ، وهو قصصى وكاتب ، شأنه فى ذلك شأن صديقه ، ولكنه لاحظ صديقه ينظر إلى جهة بعيدة عند الأفق فيها أشجار متكاثفة ، تجلل رأس مرتفع عن الأرض ، ورأى على وجهه نظرة جادة كمن يفكر فى شيء . فسأله :

— فيم تفكر ؟ كأنى بك تتجه بالفكر إلى ضحايا

جاليجولا ، أو إلى الإمبراطور المجرم نفسه .

فأجاب : كلا ! لقد لاحت لى هذه الأدغال المتكاثفة ، فذكرتنى بشخص آخر قد يكون مجرماً ولكنه يستحق الشفقة كل الشفقة .

الواقع أن منظر هذه الأدغال المتشابكة ذهب به بعيداً إلى تلك الصورة البديعة التى وصفها جيمس فريزر فى كتابه الخالد عن معبد كان مقاماً فى غابة على مقربة من بحيرة نيمى ، وكان كاهنه الأكبر لا يموت فى الغالب إلا قتيلا . ذلك أنه مقدر دائماً أن من يقتل الكاهن الأكبر يحل محله ، فإذا الكاهن الأكبر بعد أن يرتكب جريمته ويحل محل سلفه لا يستطيع النوم نهاراً ، وبالأولى لا يستطيعه ليلا ، فهو لا يزال مختبئاً بين الأدغال ، فى يده الخنجر خائفاً أن يغفى فيغفل عن حماية نفسه ، فيأتيه من يقضى عليه ليحل محله . فما أشقى هذا الكاهن بمركزه !

سارت بهما السيارة فإذا الطريق تؤدى إلى قرية صغيرة كان أهلها فى مرح وسرور وقد ارتدوا خير ثيابهم ، فالفتيات والرجال فى ملابس بسيطة ونظيفة ، والفتيات النضرات فى ثياب بيضاء مزركشة ، وإذا هم فى عيد يحتفلون بموسم فاكهة الفراولة ، وكانوا يسيرون فى موكب نحو الميدان الذى يتوسط القرية . ونزل

الصديقان من السيارة ، وسارا فى الموكب مع السائرين يتحدثان إلى هذا وذاك . فلما بلغ الموكب الميدان الذى يتوسط القرية كان العمدة فى انتظاره ، وهو رجل بدين بعض الشىء وخجول ، فتقدم يحيي السائرين فى الموكب ووقعت عيناه على الغريبين ، فتقدم إليهما ، وتقدما إلى تحيته . وكان الميدان محاطاً بسرادقات منصوبة فيها فتيات من جميلات القرية يبعن سلات مليئة بالفاكهة المحتفل بها ، فاشترى الصديقان سلة منها وعادا إلى سيارتهما بعد ساعة قضياها فى لذة وحبور .

عادت السيارة تسير بهما فى طريق ممهدة تشرف على سهول تقوم بينها الأشجار هنا وهناك وتظلها أحياناً صفوف من أشجار الصفصاف الباسقة ، وتكتنفها أحياناً تلال غير مرتفعة تنمو على جوانبها الأشجار . وكان النهار قد انتصف والشمس فى كبد السماء ترسل خيوطها الذهبية ، ولم تكن فى السماء غير قطع من السحاب الأبيض تكاسلت فى بعض الأركان وكأنها تستريح فى حر الظهيرة أو هى تنتظر ساعة الطعام .

وكان الصديقان قد شعرا بمثل هذه الحاجة ، أو على الأقل إلى أكل شىء مما فى السلة . وعلى حين فجأة بدا أمام أعينهما قصر عظيم من قصور القرون الوسطى تحيط به الأبراج وحوله خندق كبير يلوح كأنه بحيرة جافة صنع على الغالب ليكون

القصر بمأمن من الغزاة والفاتحين . وكان لون القصر رماديًّا من القدم ، ولكنه اكتسى بحلة وردية من أشعة الشمس ، وأخذ منظر القصر العظيم انتباه الشيخ حتى إنه لم يكد يفطن إلى أن السيارة وقفت على باب صغير يكاد لضآلته إلى جانب القصر العظيم لا يظهر للعين .

ونزل الراكبان ودخلا المكان ، فإذا هما فى مطعم أنشىء ليشرف من موضعه المختار على القصر وسارا توًّا إلى الشرفة حيث جلسا إلى مائدة وأمامهما القصر المنيف وهما يطلان على الخندق العميق . وعلم الشيخ من صديقه أنه قصر سان جوندلفو مسكن البابا فى مصيفه .

وكانا جائعين حقًّا بعد تلك النزهة الطويلة ، ووضعت أمامهما قنينة الشراب الأحمر القانى من نوع جيد من أنواع أنبذة القصور الرومانية . وجاءت صحفة الإسباجتى المطهية على طريقة نابولى والدخان يتصاعد منها ، وقد أعدت فى الحال ؛ وملأ صاحب السيارة كوبين بالشراب ، وقال لصديقه :

— لنشرب نخبك ونخب رحلتك .

فأجاب الشيخ :

بل لنشرب نخب ساكن هذا القصر ذى التاريخ المجيد وريث بطرس والقياصرة !

٨

مأساة

سار الصديقان القديمان فى جوانب الحديقة وقد أمسك كل منهما بيد الآخر كما كانا يفعلان كثيراً أيام كانا تلميذين فى مدرسة واحدة . غير أن مر السنين لم يكن ليسمح لهما بالجرى أحياناً والإسراع فى الخطى ، بل كانا يسيران على مهل . ويظهر أن أحدهما كان يشعر بلذة الحديث إلى صديقه والآخر يشعر بلذة الإصغاء .

ولمح المتكلم مقعداً نائياً تتشابك فوقه الأغصان ، فاتجه نحوه وهو يتابع حديثه ويقول :

لنجلس أيها الصديق على هذا المقعد فى حرارة الشمس فما ألذها فى الشتاء ! حبذا لو تمكنا فى صباح كل جمعة من الحضور إلى الجزيرة لنمضى وقتاً فى هذه الحديقة حيث نرى هذه الأزهار وهى تداعب الشمس بعد أن عانت ما عانت من برد الليل ، فهى تنفض الندى الذى بللها فى ظلامه مزدرية هادئة متمتعة بلذة الساعة غير ناظرة إلى المستقبل ولا مفكرة فى المساء

القريب ، حين يأخذها الشتاء ببرده فتخضع له ذليلة مستضعفة ولا يتركها فى الصباح إلا وهى بين الحياة والموت .

نسر لرؤية الأزهار ولكن هذا السرور يكون ممزوجاً دائماً بالعطف والإشفاق ؛ لأن نضرتها القصيرة الأمد ثم تساقطها وموتها وانعدامها ، كل هذه تحدث فى النفس أثراً هو الإشفاق .

من بنى البشر أناس يقضون حياة كحياة الزهر جميلة قصيرة الأمد ، فلا يبدأ ماء الحياة يسير فى عروقهم ولا تبتدئ أجسامهم وأرواحهم تنمو وتتفتح حتى يدركها الموت فيجف ماء حياتهم وهم فى ميعة الشباب وزهرة العمر . كم من فتى وفتاة قضيا نحبهما فى سن الصبا ! ولكن هل هؤلاء سعداء ؟ أم أصابهم القدر بسهمه فلم يمتعهم ببقية العمر وترك لأهلهم الآلام والأحزان ؟

أحدثك أيها العزيز عن فتاة عاشت بين جدران تلك البيوت الحقيرة المتداعية التى تشاهد على ضفة النيل فى بولاق . ألم تر فط فتيات يذهبن إلى النيل ليملأن جراتهن ؟ هذه الفتاة كانت مثلهن ، فى الرابعة عشرة من عمرها سمراء حادة الأنف صغيرة العينين ولكنهما ترنوان بالسحر ، نحيلة الجسم هيفاء يبين جمال جسمها من ثوبها الأزرق . أما الملاءة السوداء التى كانت تضع طرفاً منها على رأسها فلم تكن لها فى الحقيقة فائدة لأنها

لا تكاد تحجب شيئاً من أثوابها . ولكن أحسن ما فى هذه الفتاة عيناها ، وابتسامة حلوة تظهر لمعة أسنانها كاللؤلؤ المنضود .

كانت عائشة تشعر بحسنها ، وما خجلت مرة من أن تظهر للناس ، وعيناها تداعبان كل سار فى الطريق ، وكثيراً ما رماها السوقيون بألفاظ يسمونها ألفاظ المداعبة فردت عليهم رداً سريعاً أضحكهم إعجابا .

كانت تذهب مع بنات حيها عصر كل يوم إلى النيل ليملأن جراتهن وليمرحن ويتفكهن بالحديث وقد ينضم إليهن أحياناً فتيان الحى فيأخذون فى مغازلتهن بالكلام . وإذا فرغن من عبثهن ولعبهن رجعن إلى بيوتهن ليساعدن فى أعمال المنزل أو ليواسين أمًّا مريضة أو ليمنعن أذى أب سكير .

كانت عائشة تحب رفيقاتها وتتودد إليهن إلا واحدة لم تكن تميل إليها وهى خديجة . ولعل السبب فى ذلك إحساس تولد من الغيرة ؛ إذ كانت خديجة بيضاء الوجه حمراء الخدين ممتلئة الجسم صفراء الشعر ، فكان الفتيان يتزاحمون عليها ويتقاطرون لمغازلتها فصارت تتيه بذلك . ولو نظر إليها عاقل لوجد فى جفاء ملامحها وخرس عينيها وخشونة بشرتها ما ينفره من ترجيع النظر إليها فضلا عن مغازلتها . أما عائشة التى لم يكن يلتفت إليها فتيان طبقتها إلا قليلا فكان فى سحر عينيها ورقة بشرتها وخفة حركاتها ما يستوقف النظر .

شعرت خديجة بعدم ميل عائشة إليها ، فبدأت ترميها بقوارص الكلم وتتغامز عليها وتعيبها بنحول جسمها . وكانت عائشة ترد عليها ولكنها تشعر دائماً بالضعف فى ردها ، لا لشىء إلا أنها كانت تقدر مستوى الجمال كما يقدره أهلها ؛ ولذلك كانت ترى مظهر الجمال متوافراً فى خديجة دونها هى . وأخيراً ارتأت عائشة أن تبتعد عن هذه العصبة من الرفيقات وأن تنتحى جانباً ولو اضطرت إلى السير مسافة طويلة لتجد مورداً إلى الماء سهلا . فعلت ذلك وصارت تشعر بالوحشة لانفرادها ، ولكنها آثرت الوحشة على ما يصيبها من إهانة ومذلة .

وفى ذات مساء ملأت جرتها ثم جلست على صخرة وأسندت مرفقها على ركبتها وذقنها على راحتها تتأمل أمامها ماء النيل يتلألأ وهو خيطان من النور وخيطان من لون الشفق وأمامها السماء الصافية تسبح فيها قطع السحاب البيضاء المشربة حمرة وأمامها أشجار الجزيرة خضراء اللون ولكنها تبدو قاتمة . جلست الفتاة طويلا والمنظر يتغير ويتشكل أمامها بين لحظة وأخرى . فيم كانت تفكر ؟ أفى هذه المناظر البهية أم فى أمور عالمية أم فى أمور ما وراء العالم ؟ ذلك ما لا يمكننى أن أعلمه أيها الصديق . تنبهت الفتاة مذعورة على صوت جهورى ذى رنة يقول أعطنى جرعة أيتها الفتاة . رفعت الفتاة عينها إلى مصدر الصوت ونظرت إلى

عينيه ، ثم ارتد طرفها سريعاً وقالت له : اشرب إذا شئت ، وعادت إلى جلستها الأولى . إلا أنها حولت وجهها إلى الجهة المغايرة للشاب المتكلم . انحنى الفتى وبدأ يصب الماء من الجرة إلى راحته ليشرب منه حتى ارتوى ، ثم انتصب واقفاً وأخرج من جيبه منديلا أحمر مسح به يديه .

كان الفتى طويل القامة صغير الوجه لونه بين الاحمرار والسمرة وليس فى وجهه أثر للشعر عليه سيماء القوة ، فكان جميلا فى حسنه وفى شبابه . وكان يلبس جلباباً نظيفاً من القماش الأبيض ، ويلف حول رأسه شالا من الحرير الأبيض الملون بالأزرق ، تتدلى شراريبه على صدغه الأيمن فتزيده وسامة وحسنا .

وقف الشاب طويلا ولم يتحرك من مكانه ، واستمرت الفتاة فى جلستها ولكن قلبها أخذ يخفق سريعا . ما لهذا الغريب لا يتحرك ؟ إنها تشعر بأمر لا محالة واقع . ما هو هذا الأمر ؟ هذا ما لا تدريه ولكنه سيقع .

أرادت الفتاة أن تهجم على هذا الأمر المجهول فرأت خير طريق أن تقوم لتحمل جرتها ، إذ غاب الشفق وبدأت الدنيا تصطبغ بلون أخضر قاتم فوقفت ، وما كادت تفعل حتى ضمها الغريب إلى صدره ضماً شديداً فتملصت منه وتراجعت قليلا . فقال لها لا بأس عليك ! إنما انتظرت لأساعدك على حمل الجرة فلم

تمانع على وضعها على رأسها ، ثم قال سأمشى إلى جانبك خيفة أن تشعرى بالوحشة فلم تمانع فى ذلك أيضاً .

مشيا مسافة طويلة لم ينبسا أثناءها ببنت شفة . كانت تفكر فى ذلك الغريب : لم لم تكلمه بعد النظرة الأولى فى عينيه ؟ لم لم تفكر فى مداعبته ومغازلته كما تفعل مع غيره من الفتيان ؟ لم لم يفكر هو فى ذلك ؟ إن سكوته أثر فيها . لماذا ارتعشت عند ما ضمها إلى صدره ؟ ولماذا شعرت بسيال كهربائى يسرى فى جسمها ؟ لقد ضمها فتيان كثيرون من الذين كانت تغازلهم وهى مارة فى الشوارع فلم تشعر قط بتلك الرغبة الشديدة فى التخلص . تلك أسئلة لم تجد لها عائشة جوابا .

ظلت مطرقة تفكر طويلا ، وإذا بالصوت الرنان يقطع تفكيرها :

ــ ما اسمك ؟

ــ اسمى عائشة ، وما اسمك أنت ؟

ــ اسمى حسين .

ــ اسمعى يا عائشة أريد أن أكلمك فى أمر هام فقابلينى غداً قرب صلاة العشاء على كوبرى الزمالك . أفهمت ؟ لا تتأخرى .

ــ لا يمكننى أن أقابل غريبا .

– يمكنك بل ستَرين أنك تفعلين . أرجو لك ليلة سعيدة.

وتركها ومشى حتى ابتعد عنها ثم اختفى فى الظلام .

ووصلت عائشة بجرتها إلى الشارع وقابلها الفتيان بهذيانهم وعبثهم ، ولكن للمرة الأولى لم ترد عليهم وسارت توًّا إلى بيتها .

أية ليلة هذه التى ترقدها ! إنها تشعر بحرارة جسمها وتشعر بالموضع الذى مس جسمه منها كأنه مشتعل بالنار . ولكنها كانت مستاءة . لم تجرأ هذا الغريب على أن يأمرها بمقابلته أمراً بدل أن يتوسل إليها ؟ ولم ضمها بلا استئذان ولم ينتظر علامة رضاها ؟ إن هذه الأمور العادية بين أبناء وبنات طبقتها رأتها أموراً غريبة فى هذه المرة ، ولكنها كانت تشعر أيضاً بلذة ما فعله. أليست الحرارة فى جسمها أثراً من حرارة جسمه ، بل إنها تكاد تشعر فى أنفها برائحة ذكية من أريجه العطرى ممتزجة بأريج الرجل . هكذا قضت الليلة فى يقظة مفكرة ونوم متقطع ممتلئ بالأحلام الغريبة المشوشة ، حتى قامت لعمل الصباح . وفى المساء ذهبت كعادتها لملء الجرة ، فملأتها بسرعة وعادت للبيت ثم غيرت ملابسها بملابس نظيفة والتفت بمئزرها الأسود وخلعت خلخالها وتعللت بالسمر عند إحدى صديقاتها ، وخرجت على عجل إلى كوبرى الزمالك .

سارت مسرعة لمقابلته لاتمنعها عزة النفس التى كانت

تشعر بها لتجرؤ هذا الغريب عليها . وإذا به يلوح لها من بعيد فى وسط الكوبرى واقفاً ينظر إلى الماء وهو متكىء على عصا من الخيزران ، فأسرعت فى خطواتها حتى صارت إلى جانبه ولكنه لم يلتفت إليها ، فمست ذراعه فانتبه فلما وجدها لم يزد على أن قبض على يدها بيده الكبيرة الدافئة وسار بها حتى بلغا أرض الجزيرة ، ثم انعطف إلى اليسار فى ذلك الطريق الذى يفصل بين النيل وذلك القصر الفخم الذى بناه الخديوى إسماعيل ملك الذهب . وانحدرا إلى الممشى المجلل بالأشجار حيث يجتمع كثير من المحبين . فلما دخلاه بدأ يجاذبها أطراف الحديث وأخذت تجاوبه وهى شاردة الفكر لا تكاد تشعر إلا بدمائها تجرى فى عروقها وكأن لها دويًّا . وعلى حين فجأة احتضنها الفتى وضمها إلى صدره وأخذ يقبلها قبلات حارة طويلة .

كم من ليال كانا يقضيانها فى تلك المماشى الجميلة القريبة من هذا المكان ! كم من ليال كان يسطع القمر فيها بنوره فيكسوهما ويكسو الخلائق حولهما بلونه الفضى فيشعران بالهدوء والانشراح . ومن ليال حالكة كان غيرهما يشعر فيها بالوحشة وهما لا يشعران .

أتنسى عائشة تلك الليلة التى جلست فيها إلى جانب الفتى

على الحشائش فرأت أن تعبث بشراريب عمامته ، فأمسك يدها ووضعها فى فمه فصاحت فأرسل يدها ، ثم أخذت تعود إلى عملها فعاد إلى عمله ثم أمسك بها فى آخر الأمر فقطع فمها بالقبلات ؟

أتنسى عائشة تلك الليلة التى جلست فيها إلى جانب الفتى على الحشائش فوضع يده حول خصرها وضمها بتلك الذراع القوية إلى جانبه وأخذ يتغنى بمواويل العشق والغرام بصوت ممتلىء بديع ؟

أتنسى تلك الليلة التى قالت له فى عبث الحديث إنها أطول منه قامة فأمسك بها ورفعها إلى صدره ورفض أن ينزلها إلى الأرض حتى أقرت بالغلبة ؟

تلك أيها الصديق ساعات الحب التى مرت على عائشة . ولكن هذه الساعات كانت تنال من جسمها وأخذت تزيد نحولا من التعب — تعب النهار الذى لا يترك مجالا للراحة وتعب انتظار ساعة الميعاد وتعب الغرام . ولم يكن لتلك الفتاة الجاهلة ما يجعلها تطلق العنان لتخيلاتها فى الأوقات التى هى فيها بعيدة عن حبيبها فهى تعيش طول اليوم مع الحبيب إما فى حقيقة أو فى خيال . لقد أعطاها الله مواهب عدة ، ولكن هذه المواهب لم تثقف ولذلك كانت تقضى اليوم ساخطة لاعنة مما زاد فى سوء حياتها .

وفى ذات ليلة تقابلا فى الموعد كعادتهما . ولكن عائشة كانت منقبضة الصدر ، إما لأنها تعبت فى ذلك اليوم من كثرة العمل أو لأنها تثاقلت فى اليقظة صباحا ؛ ذلك ما لم تعرفه ولكنها كانت منقبضة . وجاءت إلى موعد حبيبها لهفة تريد الابتعاد عن ذلك الانقباض وتأمل أن تجد بين أحضان حبيبها سلوة لها عما تشعر به من التعب .

سارا فى تلك الليلة على ضفة النيل من الجهة الأخرى المقابلة لبولاق .

سارا صامتين ، ثم جلسا على الأرض ونظرا إلى النهر طويلا . ثم على حين فجأة ضمها إلى صدره بقوته المعهودة وقبل شفتيها قبلات طويلة ، ولكن انقباضها لم يذهب فانتفض جسمها تحت حرارة قبلاته . وهى كانت تشعر بالحاجة إلى تلك القبلات ولكن القبلات كانت تزيدها غليلا . وكانت الفتاة تحملق إلى فم الفتى تستنشق أنفاسه وتنتظر القبلة التالية بنافد الصبر ولكن الانقباض كان لا يزال يعروها .

لاحظ الفتى انقباضها فتوقف عن تقبيلها وقال لها لعلك تعبة الليلة ؛ فأجابت نعم أشعر ببعض التعب . فقال بلهجة المداعبة : إذن أتركك الليلة لوجه الله ولنتحادث . وشعرت الفتاة بتألم لما فى هذا التعبير من خشونة ولم تك تشعر بأى ألم الخشونة

تعابيره فى المرات السابقة على أنها لم تظهر التألم . ثم قال لها : رأيتك من يومين تحملين الماء فى مثل الوقت الذى قابلتك فيه أول مرة . أجابت نعم ولكن أين كنت ؟ قال : كنت أراقبك من بعيد ولم تكونى منفردة بل كنت مع فتيات أخريات . أجابت نعم هن صاحباتى هجرتهن من زمن بعيد ، ولكن وجدتنى فى هذا اليوم فى حاجة إلى الذهاب لأملأ جرتى من موردهن ولأتحدث قليلا . فسكت الفتى لحظة ثم سأل : ما اسم تلك الفتاة البيضاء البضة الجسم ذات الشعر الأصفر؟ فأجابت وقد شعرت الفتاة بقلبها يقف قليلا ثم يخفق سريعاً حتى ليكاد يثب من جوفها إنها خديجة . فقال الفتى ينظر إليها وكأنه يكلم نفسه إنها جميلة جميلة جداً ، وأنا أحب هذا النوع من النساء . ثم وجه كلامه إلى الفتاة : ألا يمكن أن تأتى بها معك فى الليلة القادمة ؟

خارت قوى الفتاة فلم تدر ما تجيب ، ولكنها قالت بصوت ضعيف : يمكننى استصحابها . فأجاب الفتى على عجل : حسناً تفعلين .

وساد السكون بينهما مدة قصيرة . ثم قام الشاب ونهض قائلا : إذن فموعدنا الغد ومعك صاحبتك الجميلة ، فأومأت برأسها لأنها أمست لاتقوى على النطق .

سارا فى الظلام حتى قاربا كوبرى الزمالك ، وإذا به ينسى فى هذه المرة أن يقبلها القبلة الأخيرة قبل أن يتركا ستر الظلام فيدخلان إلى النور ، ثم سلم عليها الفتى قائلا : إنى على موعد فى الجيزة مع بعض الرفاق فإلى الملتقى ، وتركها ميمماً طريقه .

وسارت المسكينة تخترق طريقها إلى بولاق وهى تتعثر فى أذيال إزارها . ماذا تعمل ! رباه أتقذف بنفسها إلى الماء فيتلقاها النيل فى أحضانه وتخلص من متاعب الحياة أم تذهب إلى المنزل وتوقد النار فى ثيابها ؟ إنها تشعر الآن بجسمها يحترق ، فلم لا يذهب هذا الجسم إلى أقرب عنصر إليه ؟ الفكرة الأخيرة هى الصواب .

الموت إحدى الراحتين أيها الصديق ، بل الموت هو الراحة الأبدية الوحيدة فى مثل هذه الأزمات العصيبة والحياة بعد ذلك هى حياة نفس ميتة . . .

أتذكر أيها الصديق أثناء مرورنا على شجرة السنديان الوارفة الظلال التى هى أول المدخل إلى الجزيرة ؟ أما ضحكنا على امرأة قبيحة مشوهة تبيع الحلوى جالسة فى مكان لا يصلح للتكسب ولا يصل إليه طفل من الأطفال الذين تعودوا حلواها إلا نادرا ؟ تلك المرأة هى بعينها موضوع قصتى ، هى التى رأت تلك الليالى

السعيدة فى صباها ، وهى التى عصفت بها تلك الليلة المشئومة . ولكن شقاء الحياة وضيق المعيشة وزوج سكير وذكريات مرة . كل هذه لم تترك لها من العقل شيئاً ولم تترك من الجسم إلا حطاماً قذراً !

٩

الهر الأسود

وقفت خديجة هانم فى غرفتها تصلح من شعرها أمام المرآة ، فسمعت جلبة شديدة وأصوات انقلاب بعض المقاعد، فهرولت إلى باب غرفتها لتقف على جلية الخبر . وما كان أشد وقع المنظر الذى شاهدته على نفسها ! شاهدت ابنها كاملا يضرب هرًّا أسود اللون فهجمت على ولدها وانتزعت العصا من يده انتزاعاً مانعة إياه من تكرار عمله وقد امتلأ قلبها غضباً وإشفاقاً على ولدها ، وجرته إلى غرفتها فعنفته وصبت عليه الشتائم واللعنات.

بقيت السيدة يومها مضطربة بهذا الحادث ، وما كاد الليل يجن حتى ساورتها المخاوف على غلامها ، وظلت تعرض لخاطرها صور كئيبة اجتهدت بلا جدوى فى طردها من ساحة الفكر .

كان كامل غلاماً ذكيًّا خفيف الروح فى الرابعة عشرة من عمره ، وصل إلى منتصف المدرسة الثانوية لا بفضل مذاكرة الدروس ولكن بفضل ذكائه . لزم المنزل منذ ابتدأت المسامحة

الصيفية فعلا الضجيج فى أركان المنزل بعد أن كان هادئاً ساكناً وكانت أمه تمضى أيام المسامحة بين لذة وجوده والاشتغال بشؤونه .

أسفر الصباح فألفت نفسها متلهفة لرؤية ابنها بعد ماانتابها من الهواجس ولكنها أبت أن تذهب إلى غرفته خشية إيقاظه وإقلاق راحته . ظلت منتظرة طويلا حتى متع الضحى وعيل صبرها ، فقصدت غرفته فوجدته نائماً . أيقظته فاستيقظ الغلام ولامته لتأخيره فى النوم . قام الغلام فغسل وجهه ثم جلس أمامها على المائدة للطعام ، ولكنه لم يأكل إلا قليلا . كانت الأم تردد النظر إليه مرة بعد أخرى لتراقب ملامحه مع اجتهادها فى إخفاء تلك المراقبة .

لاحظت على وجهه أمراً غريبا : لم تر على وجهه زهوة النشاط العادية وقد أصبح أصفر الوجه قليلا وبدا على سيماه شيء من الكسل والخمول ، ثم رأت الاحمرار على أنفه صار أميل للون البنفسجى . ظلت الأم ساكنة طويلاعلى ما لاحظته ، ثم رأته لايكاد يأكل ويهم بالقيام من المائدة فصاحت به : ما بالك لا تأكل ؟ فأجاب الغلام : لاأشعر بالرغبة فى الأكل فقالت له أتشعر بشيء ؟ أجاب كلا . ولكنها كررت السؤال بلهجة عنيفة فأجاب : أشعر بثقل فى رأسى حتى لا أكاد أقوى على فتح عينى ، وأشعر بألم فى جميع عظام جسمى . فقالت الأم :

اغسل وجهك ورأسك وبذلك يزول ما تشعر به . قالت ذلك القول وهى تشعر فى أعماق نفسها بأن ذلك لا يزول .

أمضى الغلام سحابة يومه تعباً يحاول اللعب فلا يجد النشاط ، ويحاول القراءة فلا يرتاح إليها ، يسعى إلى التسلى بسماع الأحاديث فلا يجد فى ذلك تسلية . وكان نومه فى الليل مضطربا . أما أمه فلم تحاول النوم ولم تنم إلا غرارا .

وكان كامل فى اليوم التالى على حاله بل أسوأ حالا . فسقوه شربة عل به برداً يزول .

هناك إنسان واحد كان يشعر بأن هذا المرض جدى ويخشى نتائجه هو خديجة هانم .

كانت تؤمل زواله بعقلها ولسانها ، ولكن نفسها وقلبها كانا يشعران بالخطر . ألم تشعر به وتخشاه منذ رأت ابنها يضرب الهر الأسود ؟ !

كامل فى الفراش ، فقد صوابه وغاب فى بحران فهو لا يعرف أحدا . ترى فى وجهه زهوة واحمراراً ، ولكنه ليس احمرار الورد الذى هو نتاج الطبيعة بل هو احمرار النار التى تلتهب فى أحشائه ، احمرار الشيطان النارى الذى يضغط على أنفاسه فهو يتنفس بصعوبة . وقلما يفتح عينيه ، وإذا فتحهما نظرتا فى فراغ لأنهما لا تريان الأشياء ولا تعرفان حتى تلك الأم الواهة التى

تمضى ساعات الليل الطويلة إلى جانب فراش ابنها الطريح وتمضى كذلك جل النهار إلا ساعات قليلة تقوم أثناءها بعمل ضرورى أو تغفى أثناءها فتوقظها الأحلام المزعجة ، ومع ذلك فهى لا تنتهز هذه الساعات إلا بعد أن تترك إلى جانبه خادماً أمينة أو قريبة مخلصة .

وكم من مرة جلست إلى جانبه فرأته يقوم من نومه ويشير إليها فتهرع إليه وقلبها يخفق سريعاً وقد ملأه الأمل فإذا به يخاطبها مخاطبة الغريب . وحينئذ ينكمش الأمل فى ركن ضيق وتسود ظلمات المخاوف .

جاءت أمه بالطبيب فقال : إن الغلام مريض بحمى لا تتذكر اسمها وكتب له دواء يتجرع منه نقطاً على الماء . وقد مضت عشرة أيام على مرضه ولا أثر للدواء ، بل زادت النار اشتعالا وهى تأكل جسمه حتى التصق الجلد بالعظام .

أجل إن الطبيب لا يعلم شيئاً . وإن الأم أكثر اطلاعاً . الأطباء قوم يحاربون أمراض المادة ، ولكنهم لا يحاربون الأمراض التى توقعها عقاباً قوة من فوق البشر . ألم تشعر الأم بالخطر من ساعة أن رأته يضرب الهر الأسود !

قصدت أم إبراهيم الزهارة منزل خديجة هانم وهى لم تزره من شهر ، فأدخلت إلى غرفة أخرى غير التى فيها السيدة ، ثم بعد

قليل جاءت خديجة هانم واعتذرت بأنها لم تدخلها عليها لأن ابنها مريض وكانت جالسة إلى جانبه . ومن المعروف بين السيدات أن دخول زائر فى مجيئه على مريض يضر بذلك المريض . وظلت تحادثها بمرضه ، فتصف لها حاله وإذا بالهر الأسود داخل من باب الغرفة ، فقطعت خديجة هانم الحديث وظلت ترمقه بعينين ملؤهما الكراهية التى تحاول إخفاءها ولكنه خرج بعد قليل ، فأمسكت الأم المسكينة بذراع أم إبراهيم قائلة : هذا هو السبب . سألت أم إبراهيم من ؟ فأجابت خديجة هانم : هذا الهر الأسود . لقد ضربه ابنى وفى اليوم التالى انتابه المرض . فقالت أم إبراهيم : لا بد أن يكون من الأسياد ، فخير لنا أن نأخذ رأى الشيخ سعيد ، فإذا كان هذا القط من الأسياد عرف كيف يسترضيه ويشفى ولدك . فسألتها الأم : وكيف يعرف أنه من الأسياد ؟ فأجابت بفتح المندل ، فابحثى عن جارية تعرفينها تكون نحيفة ممن يسكن جسمها بعض الأسياد ، وغداً أقودك إلى الشيخ سعيد بعد أن نتفق معه على الموعد . فقالت خديجة هانم : وصفتك موجودة فزهرة الطاهية تنطبق عليها هذه الأوصاف . فقالت الزهارة : إذن فرج الله قريب فلا تخافى ولا تحزنى ، ثم ودعتها وانصرفت وهى تدعوله بالشفاء لكامل .

فى تلك الليلة كانت خديجة هانم تشاهد ابنها وهو يتقلب فى

فراشه وتسمع زفير تنفسه وهو يتنفس بكل صعوبة ، ولكن الأمل كان يجول فى نفسها ودواء الطبيب لم يفعل شيئاً ، إذن دواء الشيخ سعيد هو الدواء الناجح .

وفى اليوم التالى سارت أم إبرهيم الزهارة بخديجة هانم وطاهيتها إلى حى السروجية ثم إلى حارة ضيقة فيه ، وهناك دخلن إلى بيت عتيق صعدن سلمه وإذا بهن فى غرفة واسعة جلس فيها شيخ سودانى ذو لحية بيضاء يلبس عمامة كبيرة خضراء علامة على أنه من نسل النبى صلى الله عليه وسلم .

جلست السيدة على طنافس مفروشة فى الأرض ، وجلست أم إبراهيم قريباً منها على البساط . أما الجارية زهرة فجلست على ركبتيها فى ركن قصى ، وجلس الشيخ بعيداً عنها قليلا . ثم جىء بقدح فيه زيت وأمرت الجارية بإمساكه والتحديق فيه ، وجىء بموقد كبير تأججت فيه النار ووضع قريباً منها ، ثم نثر على النار البخور فاحترق وتصاعد دخانه حتى عبق الركن الذى كانت الجارية جالسة فيه ، وأخذ الشيخ يتلو من ذاكرته عبارات يرفع الصوت بها أحياناً ويخفضه أحياناً ، وهو بين حين وآخر ينثر البخور على الموقد . أما الجارية فظلت دائمة التحديق فى القدح وهو بين حين وآخر يسألها : ماذا ترين ؟ فتجيبه أنها لا ترى شيئاً . ثم قالت ثالث مرة : إنها ترى باب دار واسعة ثم

أخذت تقص القصة الآتية :

أرى باب دار واسعة بسط رمل أمامها وصفت فيه كراسى بينها مقعد كبير ، خادم ينظف الكراسى ، انتهى من عمله وذهب ، أرى سيداً قد خرج من البيت يحف به جمع من الصحاب ، جلس على المقعد وجلس حوله الصحاب ، رباه ! إن وجوههم لا تشبه البشر . تسألنى ماذا تشبه ؟ — وجوههم تشبه الحيوانات — القطط — إنه يتكلم ويقص قصة غلام ضربه ويقول إنه يعاقبه على ذلك .

وهنا أمرها الساحر بأن ترفع نظرها عن الكأس ، وأمر خادمه بحمل الموقد بعيداً ، فارتمت الجارية المسكينة على الأرض فنضح عليها الماء وأخذ الشيخ يقرأ فى أذنها بعض كلمات حتى أفاقت من غشيتها .

التفت الشيخ إلى خديجة هانم وقال لها لقد علمت أيتها السيدة سبب مرض ابنك ، فهاك ورقة مكتوباً داخلها بعض كلمات يجب أن يبتلعها الغلام . وهاك مسحوقاً يتعاطاه مع الورقة بعد غد ساعة صلاة الجمعة .

فقالت له الأم : ولكنه لن يقوى على ابتلاع هذه الورقة . فصاح الشيخ فى وجهها ، إنك غبية يجب أن يأكلها إن أردت شفاءه ، احتالى على ذلك قطعيها قطعاً صغيرة وامزجيها باللبن

هى والمسحوق أليس لك عقل !

قامت السيدة خديجة هانم صاغرة ودفعت الخمس الجنيهات المتفق عليها وخرجت مسرعة إلى المنزل حاملة الدواء مرتاحة الضمير .

دخلت إلى غرفة ابنها فإذا هو على حاله يتقلب على فراشه والحمى تمرح ما تشاء فى جسمه ولم يكن فى يوم من أيام مرضه فى شدة كالتى كان فيها ذلك اليوم ، وكان الغلام يجاهد جهاداً أليماً مع ذلك العدو الذى ينتهب جسمه بل يريد أن يتعدى إلى روحه ، وكانت الليلة من أسوأ الليالى على أمه المسكينة ، وأخذ الشك يتسرب إلى قلبها والمخاوف تتنازع فكرها : هل يعيش الغلام إلى يوم الجمعة فتجرب ذلك الدواء ! بل دخل الشك إلى قلبها فى الدواء . ألم يحذرها الطبيب عاقبة طعام غير اللبن والماء فكيف تكون عاقبة الورق والمسحوق المجهول ؟

تنازعتها الهواجس وذهبت بها كل مذهب . ما كان عليه لو لم يضرب الهر الأسود !

أصبح الصباح وإذا بالحمى قد ذهبت فجأة من الغلام وزالت الحرارة عنه وبان اصفراره وتبدت عظامه فكان منظره مخيفاً ، وارتاحت الأم عنـــد ما لمست جسمه فوجدته بارداً ، ولكنها ما أخذت تتأمل فيه حتى ارتاعت وطار لبها ؛ فإن حالته

فى تلك الساعة التى بدا فيها بعيداً عن الحمى كانت أسوأ من رؤيته يتقلب على فراشه وجسمه كالجمر . وكان اصفراره مخيفا ، وكانت فرائص أمه ترتعد للخوار والانحطاط الجسمانى الذى بدا عليه فى تلك الساعة ، فأخذت تبتهل لله وتذرف الدمع غزيراً وصارت تروح ذهاباً وجيئة دون أن تعلم ما تصنع .

ظل الغلام على هذه الحالة الصعبة حتى الظهيرة ، ثم أخذت الحمى تعود إليه وحرارته ترتفع ، فكان من الغريب أن عودة الحمى ردت بصيصاً من الأمل إلى قلب أمه ؛ لأن الذهاب الفجائى لتلك الحمى كان من أشد المناظر وآلمها على النفس .

جاء يوم الجمعة وأخذت خديجة هانم تنتظر الظهيرة بفارغ الصبر . وجاءت أم إبراهيم لترى ثمرة العمل الذى اشتركت فيه . وما جاءت الظهيرة حتى أعدت السيدة اللبن وأضافت المسحوق وقطعت الورقة قطعاً صغيرة جداً نثرتها فى اللبن ثم جلست تنتظر الأذان بنافد الصبر ، ولكن جاءتها إحدى العائدات وكانت ممن لا تحب إدخالهن على ابنها فذهبت تقابلها فى غرفة أخرى ، وأجلست أم إبراهيم مكانها بجانب السرير واللبن . كان اليوم حاراً شديد الحرارة ، فنعست أم إبراهيم وأخذتها غفوة حلوة فما استيقظت إلا على صوت جلبة وإذا الهر الأسود قد قلب إناء اللبن فى نزوله من المنضدة بعد أن شرب ما فيه .

لا تسل عن حيرة الموقف الذى وقفته أم إبراهيم فى تلك الساعة . وقفت حائرة مرتاعة برهة من الزمن ، ثم هرولت إلى المطبخ فملأت الإناء لبناً صافياً وأعادته إلى مكانه .

فى صباح الغد فتح كامل عينيه ونظر إلى أمه وتكلم بصوت ضعيف لا يكاد يسمع فإذا به ينطق بكلمة « أماه » .

اهتزت الأم لتلك الكلمة اهتزازاً شديداً وأسرعت إليه تضمه إلى صدرها وهى لا تملك نفسها سروراً . قال لها إنى جائع ، فأسرعت إليه بإناء ممتلئ لبناً ، ثم أجلسته وأسندته على صدرها .

قال لها الغلام بصوته الضعيف : لا أريد اللبن يا أماه . فقالت : صبراً يا بنى ! تحمل قليلا واشرب اللبن من أجلى فتجرع الغلام ما فى الإناء صابرا .

بعد أن فرغ منه ناولت الإناء إلى الخادمة وظلت تسنده إلى صدرها وقبلت خده ثم أسندت خدها إلى خده وقالت : أريد منك يا كامل أن تعدنى بشىء واحد كى يرتاح ضميرى .

قال : اطلبى يا أماه .

قالت : عدنى ألا تضرب هرة فى حياتك .

أجاب بصوته الضعيف : أعدك يا أماه !

١٠

ليلة

جلس القرفصاء وأسند ظهره إلى عمود من أعمدة المسجد ، وكانت جلسته فى الإيوان المقابل للساحة وأمسك القرآن الكريم يتلو فيه الآيات البينات .

هكذا كان ينفق الشيخ أحمد وقته منذ سنوات سبع بين المطالعة والدرس فى الأزهر بعد أن جاء إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وهو الآن فى نحو العشرين من العمر أو يتجاوزها قليلا ، ضئيل الجسم أبيض الوجه تعلوه صفرة لعلها من صعوبة العيش وقلة ذات اليد ؛ فقليلا ما تمر الدراهم بكفيه ، وأقل من ذلك إلمامها بجيبه ، وكان لا يكاد يقتات إلا بجرايته اليومية من الخبز يستبدل ببعضها إداما .

هو فى القاهرة منذ سنوات سبع ، ولكنه لا يعرف منها إلا تلك المساحة التى تصل بين الجامع الأزهر الشريف والمقام الحسينى ، أما ما سواها فهو أجهل لديه من صحارى إفريقية إن كان يعلم بوجود هذه الصحارى .

وهو لا يعرف من الطلبة زملائه إلا العدد القليل لأنه بعيد الألفة كثير العزلة قليل الكلام ، يعلم عن آخرته أكثر مما يعلم عن دنياه .

فتى طاهر عفيف لم يرتكب فى حياته ذنباً أو إثماً ولا يعرف عن المعاصى وزلات النفس إلا أسماءها وما قرأه من التحذير منها ومن سوء عاقبتها .

جلس يتلو القرآن الكريم فى مصحفه بصوت مرتفع قليلا وهو يهتز إلى الأمام أثناء التلاوة ، عادة اعتادها عند القراءة كما هى منتشرة بين زملائه .

وكان يقف بين حين وآخر عن القراءة ويسرح الطرف فى صحن المسجد . ولعله كان يرى فى قضم البصل الملقى فيه وعروق الكراث أثراً من آثار الحقول الخضراء حيث أمضى عهد الحداثة فيتذكر أمه وأباه .

ولكن الغالب أنه لا يتذكرهما ولا يتذكر موطنه ؛ لأن العمل الذى يقوم به الآن هو أسمى وأكبر من عظمة الطبيعة فى قريته النائية . وما قيمة حياة الفلاح الجاهل بالقياس إلى طالب أزهرى يحشو رأسه بكتب الفقه والحديث ويعى صدره القرآن الكريم فهو حامل لكتاب الله تعالى وحافظ عليه !

كان الشيخ أحمد لا يعرف من غير الطلبة فى القاهرة — أعنى

المساحة التى وصفناها — إلا شخصين : رجلا فى الأربعين من العمر زيات وصاحب مطعم حقير ، وهو الذى يستبدل منه ببعض الخبز الإدام . وشيخاً هرماً فى نحو الستين من العمر وهو أزهرى قديم يفتح حانوتاً لبيع الكتب .

أما الأول فكان يوده ويشفق عليه ، وكثيراً ما أعطاه الطعام بلا ثمن .

وأما الشيخ الهرم فكان صديقاً للفتى يلجأ إليه لترويح النفس عصراً بالجلوس فى حانوته الصغير ، وكثيراً ما أعاره الكتب القيمة ليقرأها وكان يحلو للشيخ الكتبى أحياناً أن يجاذب الفتى أطراف الحديث فى غير الدين ويباحثه فى أمور الحياة يتفكه بما يراه فى هذا الشاب الساذج من البساطة والجهل بأمور هذا العالم .

فإذا أمسى المساء عاد الشاب إلى الأزهر وقضى فرض الصلاة ثم ذهب إلى أحد الأروقة فالتف فى عباءته ونام .

اشتهر الشيخ أحمد بالصلاح والتقوى وطهارة الذيل فى جميع الحى ؛ فقد كان من أشد الناس تمسكاً بدينه ، وكان يرى أن الدين هو غاية الحياة ، وأن الوجود فى هذه الحياة هو واسطة للحياة الأخرى وسبيل إليها فلم يكن يقصر قط فى واجب دينى ولم تلم بقلبه رغبة من رغبات النفس الإنسانية .

لم يشعر قلب الشيخ أحمد قط بالحب ولا العداوة ، اللهم إلا للشيطان « إن الشيطان كان للإنسان عدوًّا مبيناً » . فكان إذا ما جلس لتلاوة القرآن تحمس قليلا عند تلاوة اللعنات التى صبت على هذا الملك العاصى .

وكثيراً ما مر الشيطان أمام الشيخ أحمد وهو فى تلاوته ، وكان الشيطان يرغب فى زيارة الأزهر أحياناً ويلذ له سماع بعض المحاضرات فيه ، فيتنكر فى هيئة شيخ أسمر اللون ذى لحية صغيرة ويخفى قرنيه تحت عمامة حمراء كبيرة وجناحيه تحت قباء مغربى .

كان الشيطان يمر بالشيخ أحمد وهو جالس القرفصاء يتلو القرآن الكريم وفيه اللعنات للشيطان ووصف لزيغه عن الحق فيبتسم الشيطان لرؤية الشاب المسكين ابتسامة تكاد تخالطها عاطفة الشفقة التى لم يشعر بها ذلك الملك منذ طرد من رحمة الله .

ولكن الشيطان لم يفكر طول السنوات السبع فى أن يمس بأذى هذا الشاب البرىء المسكين .

وفى ذات يوم كان الشيخ أحمد جالساً عند صديقه الكتبى فأراه كتاباً بخط اليد وضعه أحد علماء القرن الثانى للهجرة وأسماه « تحديد النظر فى القضاء والقدر » فرأى فيه الشاب من تعمق فى البحث ودقة فى النقد ما جعله يرغب فيه ، ولكنه حزر أن ثمنه لا بد أن يكون كبيراً لندرته . ومع ذلك تجرأ على سؤال

الكتبي عن ثمنه فأجابه بأنه اشتراه بجنيهين وقال إنه سيبيعه بأربعة جنيهات ، ثم قال ضاحكاً : ولكن إذا كنت تريد أن تشتريه أنت فإني أنزل لك عن الربح ولا أطلب إلا الثمن الذى دفعته فيه .

لا ريب فى أن الشيخ أحمد كان يتمنى من صميم فؤاده أن يكون مالكاً ثمن هذا الكتاب ، ولكن أنى له ذلك ؟ هكذا فكر وهكذا قال لصديقه الكتبي .

مضى نحو الشهر والشيخ أحمد يزداد تعلقاً بالكتاب ويسأل الكتبي عنه مخافة أن يكون قد باعه ، وتولد لديه أمل قوى فى أنه سيحصل على النقود ، من السماء أم من الأرض ؟ ذلك ما لم يكن يعلم .

وفى ذات صباح مر الشيخ أحمد على الكتبي فقابله هذا ضاحكاً يقول : لقد حضرت فى الساعة المناسبة إذ عثرت لك على عمل بسيط تتمكن بأجره من شراء الكتاب ، فإنك تنقد أثر تمامه خمسة جنيهات . فسأل الشيخ أحمد بلهفة ما هو ؟ فأجاب الكتبي : هو أمر بسيط . تعال إلىّ فى هذا المساء وستمر بك عجوز تقودك إلى أحد المنازل حيث يكتب كتابك على فتاة تبيت الليلة فى حجرتها ثم تطلقها فى الصباح إذ حلف زوجها عليها يميناً فهى لا تحل له بغير ذلك . فتراجع الشيخ أحمد وقال :

كلا لا أريد . فقال له الكتبي : إنك أبله ، فماذا يضيرك فى هذا العمل ؟ إنه عمل ثواب وأجر عند الله لأنك توفق بين الاثنين وتعيد ارتباط الأسرتين وهم لم ينتخبوك دون الناس إلا لما يعلمونه عنك من العفاف والطهارة ، وهم واثقون بأنك لا تقرب الفتاة أثناء الليل ، فأقبل يا بنى وكن واسطة خير . إن الله يجزى من أحسن عملا .

وتكلم الرجل طويلا على هذا النحو حتى أقنعه بالقبول .

وفى المساء ذهب الشاب إلى حانوت الكتبي وما جلس قليلا حتى جاءته عجوز مبرقعة بخمار أسود ، فأخذت بيده وسارت به فى الطريق حتى وصلت إلى بيت كبير وهو منزل أحد كبار التجار فى الغورية وصعدت به المرأة وهو يكاد يذوب خجلا إلى غرفة واسعة ، وجد فيها رجلا فى نحو السبعين من العمر هو الأب ، ورجلا أصغر منه بقليل هو الزوج وقد أحضر مأذون عقد له على الفتاة المجهولة ، وكان الجميع يرشقونه بنظرات الاحتقار حتى هم بالقيام والخروج إلا أنه عاد ففكر فى كلمات الكتبي وفكر فى الكتاب وأحس بأنه أشرف نفساً من هؤلاء وأطهر ضميراً .

وقدم بعد ذلك طعام شهى للشاب المسكين لم يذق مثله فى حياته فسقط عليه سقوط الوحش على فريسته ، وما انتهى من الطعام إلا بعد أن امتلأ بطنه ولم يبق سبيل للمزيد .

جلس الفتى بعد الطعام قليلا ، ولكن النوم بدأ يداعب عينيه أمام الحاضرين ، ولحظوا منه ذلك ، فدعوه إلى غرفة مفروشة بالأثاث مما لم يحلم به قط فيها سرير من النحاس الأصفر جميل الصنع ، فبسطوا له ملاءة على السجادة ارتمى عليها كالقتيل وبعد قليل كان يغط فى نومه .

لسبب ما لعله تأثير حشد الطعام الشهى فى معدته أخذ الفتى يحلم أحلاماً غريبة معظمها مربع مختلط ، ثم أخذ يتخيل كأنه نائم فى رواق الأزهر وأخذه الأرق دون رفقائه ، فجعل يقلب طرفه فى الرواق وإذ بشبح أبيض يفتح الباب وأخذ يتخطى النائمين وهو يقترب منه شيئاً فشيئاً ، فلما اقترب منه تبينه وإذا هو إنسان ملتحف بوشاح أبيض . فلما صار الإنسان بجانبه رمى الوشاح فتبدت فتاة جميلة غاية فى الحسن ، فشعر الشيخ برجفة اعترته وانحنت الفتاة وهى تحدق إليه بعينيها الجميلتين وقبلت فاه فإذا الرجفة تمر فى سائر بدنه سريعاً .

استيقظ الفتى من منامه وجسمه يرتعش من آثار الحلم ، ونظر حوله مندهشاً وغاب عن ذهنه ما حدث له فى أول الليل فجال بنظره فى أنحاء الغرفة حتى وقع نظره على السرير ، وإذا فتاة نائمة لم تقع العين على أجمل منها وزادها النوم جمالا . كانت لابسة قميصاً أبيض من الحرير انفتحت أزراره الأمامية فبان

صدرها كالعاج وهو يرتفع وينخفض مع تنفساتها .

أحس الفتى وهو ينظر إليها بشعور لم يشعر به من قبل وأحس دماءه تتسابق فى الجرى من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ثم من قمامة رأسه إلى أخمص القدمين ، وأخذ قلبه يخفق خفقاناً عنيفاً لا يشبه خفقان الوجل فانتفض الفتى من نومه وقد ذهبت من وجهه تلك الصفرة العادية واصطبغ وجهه بالاحمرار ، وكانت عيناه تلمعان فتكادان تضيئان الظلام .

كان كل جسده فى حركة إلا فكره فكان صامتاً واجماً لا يتحرك .

سار نحو السرير وبدنه يرتعد ارتعاداً ، واضطجع إلى جانب الفتاة وضمها إلى صدره بقوة لم تك فيه من قبل . فتحت الفتاة عينيها لحظة واستيقظت من نومها عند ما شعرت بحرارة الفتى وهو يضمها إليه ثم أغمضت جفنيها علامة على الرضا .

وغرق الاثنان فى بحر كان أحدهما به جاهلا وكان الآخر لا يقرب إلا ساحله .

* * *

فى الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالى كان الكتبى جالساً على حانوته وإذا بالشيخ أحمد مار عليه وهو ممتقع اللون واجم لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فناداه قائلا : أسعدت صباحاً .

أتريد الكتاب الآن ؟ ولكن الفتى لم يرد عليه وصار فى طريقه ؛ ذلك لأنه تغير فى ليلة واحدة فلم يعد الشاب الساذج الطاهر الذى يهوى الكتب .

اعترت الكتبى الدهشة ولم يعلم ما ألم بالشاب . ولكن كان هناك شيخ واقف على باب مسجد الأزهر وهو يعلم الحقيقة ؛ هذا الشيخ بعمامة كبيرة حمراء وكان يضحك ملء شدقيه سروراً !

١١

الزوجة الأثيمة

ترك الشيخ على البيت مبكراً فى الصباح ، وكان يتبين للناظر إليه ما هو فيه من شدة الغيظ ، ثم أقفل باب البيت وراءه بشدة فانحصر طرف من جبته فكادت تتمزق ، ولكنه لم يأبه لهذا الأمر الحقير وهو فى شدة الغيظ يود لو أمكنه هدم داره على من فيها بعد أن جرى فى الدار ذلك الأمر الذى أغضبه .

ولو كان كل الحق يقال لقلت إن شدة الغيظ التى ظهرت بوادرها على الشيخ لم تكن مما يليق بحملة القرآن أمثاله ؛ فهو لم يعتبر بما جاء فى ذلك الكتاب الجليل من الحث على التجمل والصبر على البلوى ، ثم إنه كان جديراً باللوم على غضبه ، خيفة ما قد يصيب صوته من التمادى فى الغضب ، وهذا الصوت هو أساس رزقه وعماد حياته .

على أن ما وقع للشيخ على فى ذلك اليوم كان مما لا يتمالك معه المرء عواطفه . ولو قابله إخوانه وبنو مهنته — أولئك الذين شرفهم الله بأن يكونوا حملة كتابه العزيز ومنحهم خير العيش له وعليه — لعذروه على ما أصابه من الحمق .

عاش الشيخ على إلى سن الأربعين لم يفكر فى الزواج ، كالكثير من رفقائه ، وكان بعضهم يهمس بأن السر فى ذلك هو اتخاذه خليلة يعاشرها ويأوى إلى بيتها وهو خبر لم يقم عليه برهان وإن كان من الدلائل ما يدل عليه . ثم خطر له الزواج فتزوج من فتاة سمراء اللون ، جميلة المنظر ، بدينة الجسم . وأعجبته فعاش معها زهاء السنتين فى سرور ورخاء . ولم يفكر قط طول هذه المدة فى اختيار زوجة ثانية لينبسط أمامه طيب العيش . ولو خطر له هذا الخاطر لأرجأ تنفيذه إلى المستقبل عند ما تبتدئ محاسن زوجته فى الزوال وعند ما يتخذ مثنى وثلاث ورباع إذا شاء . ولعل الذى دعاه إلى تقدير امرأته أكثر مما تقضى به العادات الموروثة هو اتخاذه تلك الخليلة فى بادئ الأمر ؛ فقد عودته أن يعرف الحب ، ولو ذلك النوع الذى يعتمد على اللذة البدنية ؛ فكان يجد فى زوجه متمناه ، وكان قانعاً بحياته .

ثم زاد سروره ذات يوم عند ما سمع أن زوجه تحمل بين

جنبيها طفلا ، وكان شوقه إلى الطفل عظيما . وأخذ يعد الأيام التى تحجب بينه وبين وصول ولى عهده ، وكان يتمنى على الله أن يرزقه غلاماً تقر به عيناه وينشرح برؤيته صدره . وأراد السميع العليم أن يكون فجر اليوم الذى قابلناه فيه مغضبا ، هو اليوم الموعود . فكان يمشى فى الغرفة المجاورة لغرفة زوجه ذاهباً جائياً ينتظر البشير حتى فتح الباب ودخلت الداية .

ومن واجب المولدة على كل حال أن تقول عن الطفل إنه « بنت » ، فإذا كانت بنتاً روت الحقيقة . وأما إذا كان المولود « غلاماً » حفظته بتلك الطريقة من شر الحسد . ولكن أى فرق بين طريقة النطق بهذه الكلمة فى الحالتين ؟ ولذلك ما سمع الشيخ صوتها حتى تجهم وجهه وقطب حاجبه ، واخترق نظره الباب إلى غرفة زوجه ، ونظر إليها نظرة ملؤها السخط ، فجاوبته بنظرة ملؤها الاستعطاف والتوسل ، ثم أسبلت عينيها وهى عالمة بخطيئتها ، نادمة على فعلتها .

ولكن غضبه كان شديداً فلم يفكر فى الرحمة لها . وخرج وهو يغلى كالمرجل ، وسار فى الدرب الأحمر حتى قارب دكان عطار ، فعرج عليه بحكم العادة يشترى قليلا من سكر النبات . ولما رأى العطار عميله متجهم الوجه لم يسعه إلا سؤاله عن السبب . فقص عليه السبب لاعناً النساء صابًّا عليهن جام غضبه ،

فما وسع الرجل إلا أن عزاه ببضع كلمات عن ذلك وهو يشعر فى نفسه بالشفقة والرثاء لما ألم بذلك الزوج المسكين .

رأى الشيخ بعد ذلك أن يقصد قصر محمود باشا الدرغشلى كى يقرأ الفرض الذى تجب عليه قراءته كل يوم من القرآن إذ كان مرتباً لذلك ؛ وكانت والدة الباشا تميل إلى سماع القرآن وهى سيدة تركية عجوز لا تعرف كلمة من اللغة العربية . وكان يحلو لها الجلوس فى الشرفة عند ما يرتل الشيخ آيات القرآن فتصغى إليه وتتأثر بتلك الآيات ، أو هى تتأثر بصوته فتقطع وقتها فى التنهدبين آن وآخر ، وكثيراً ما أدى بها التأثر إلى البكاء .

ما وصل الشيخ إلى القصر حتى جلس على المقعد المعد له ورفع عقيرته بتلاوة سورة يوسف وكأنه أراد — بغير إرادته — أن ينتخب القصة التى تبدو فيها أخلاق النساء على أقبح صورة ، فكان ذلك انتقاماً لنفسه من زوجته التى وضعت بنتاً مع أنه كان لا يرجو إلا غلاما . وكانت السيدة والدة الباشا جالسة كعادتها تصغى إلى قراءته ، وتنهدت كعادتها فى عدة مواضع من القصة ، من ذلك ساعة أن قطع النساء أيديهن ، وساعة تمزق قميص يوسف وهو يفر من زوجة العزيز ، وبكت ساعة أطلق سراح يوسف وظهرت براءته . والواقع أنها لو كانت تعرف العربية لما كانت أكثر تأثراً .

ولما انتهى الشيخ من قراءته ، سألته السيدة عن زوجه بواسطة إحدى جواريها ، فذكر لها ما حدث ، ووضعها البنت بدل الغلام المرغوب فيه ، فأرسلت له عشرة جنيهات ، فأزاحت هذه القطع الذهبية عن نفسه جزءاً كبيراً من همومه . وليس معنى ذلك أنه شعر بحاجة إلى العفو عن زوجته ، فإن حنقه عليها بقى عظيما ، وكيف يغفر لها بعد فعلتها المشئومة !

خرج الشيخ على قاصداً مشرب القهوة التى اعتاد الجلوس عليه ، وأخذ يلعب النرد مع بعض الأصدقاء ، وعول على ألا يأكل ذلك اليوم فى المنزل تاركاً زوجته الأثيمة لجرمها ولتأنيب الضمير ، وفكر فى أن يقصد مطعماً يأكل فيه ، ثم عدل عن تلك الفكرة وعول على الغداء عند أخته وهى امرأة حداد . وكان فى شقاق معها ولكنه كان مع ذلك واثقاً من قبوله بالترحاب فى هذه المرة بعد أن يعلم أخته بفعلة زوجه وغضبه عليها . ولما عزم على ذلك اشترى أقة من العنب وقصد إلى منزلها فقابلته أخته فى بادئ الأمر مقابلة باردة وكانت تكرهه من أجل زوجته ، وكانت تكره زوجته لغير ما سبب إلا تلك الحاسة الطبيعية التى يتوارثها بنات حواء نحو زوجات إخوتهن . ولم يأبه الأخ لهذه المقابلة الباردة فقد كان واثقاً من تغير أخته بعد قليل .

جلس إلى أخته يتحدثان على الطعام ، وسألته عن « المنحوسة » تعنى زوجته ، فانطلق يحدثها بما جرى ، فأخذت تشعر بسرور داخلى كلما زاد أخوها فى الشكوى ، وأخذت تقاطع عباراته بكلمات العطف وتسعى بجمل صغيرة فى أن تزيد لهيب غضبه . وما انتهى من قصته حتى تناولت الحديث قائلة :

أى أخى لقد حدثنى قلبى منذ وقع نظرى على تلك المنحوسة أنها ستكون طالع نحس عليك ، ثم أخذت تعدد ما تخيلته فيها من القبائح ، ثم عطفت بعد ذلك على حقوق الرجل وزينت له أن يطلقها ويتزوج فتاة أخرى ، وأخذت تبين له أن النساء لسن إلا كالحذاء فى قدم الرجل يرميه متى شاء ثم قالت : إنها تعرف له عروساً جميلة بيضاء الوجه صفراء الشعر من بنات الجيران ، ولا يكلفه زواجها أكثر من ثمان جنيهات ، وأنها مستعدة لإقراضه هذا المال إن لم يكن لديه على شريطة أن ينتهى الأمر فيطلق زوجته فى هذا اليوم ويتزوج من الأخرى فى أيام وهى الضمينة فى أن تكون له خير زوج .

لم يأبه بأقوال أخته فى أول الأمر ، ولكنها ما استمرت فى الحديث حتى بدأ يميل إلى قولها وينفتح عقله لآرائها . تذكر مرة زوجته ونظرتها متوسلة راجية ، ولكن زالت الذكرى من أمامه

عند ما تذكر الجريمة . وكذلك شعر بلذة الزواج من فتاة بيضاء . ولكن أين المال وهو لا يريد الاقتراض ؟ عندئذ تذكر جيبه وما فيه من جود السيدة الكريمة ، فبرقت أساريره ونسى الزوجة الأثيمة !

فهرست

صفحة

١ — أجواء ٥
٢ — نظرة إلى شاعر ٥٩
٣ — قصة السجين ٧٠
٤ — مغامر ٨١
٥ — ليلة فى فرسوفيا ٩١
٦ — القسم ١٠١
٧ — حلم ١١٠
٨ — مأساة ١١٨
٩ — الهر الأسود ١٣١
١٠ — ليلة ١٤١
١١ — الزوجة الأثيمة ١٥٠

مطبوعات حديثة

فى مجموعة ذخائر العرب

- رقم ٣ — إصلاح المنطق لابن السكيت
تحقيق وشرح الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون
الطبعة الثانية الثمن ١٠٠ قرش

- رقم ١٥ — تهافت الفلاسفة للإمام الغزالى
تحقيق وتعليق الأستاذ سليمان دنيا
الثمن ٦٠ قرشاً

- رقم ١٦ — ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن
للرمانى والخطابى وعبد القادر الجرجانى
تحقيق الأستاذين محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام الثمن ٣٥ قرشاً

- رقم ١٧ — الإحاطة فى أخبار غرناطة
للوزير لسان الدين بن الخطيب
تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان
الثمن ١٢٥ قرشاً

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ظهرت حديثاً

مجموعة

نوابغ الفكر الغربى

ترجمة لكل عقل نابغ جبار بزغ فى سماء الغرب وانبسطت منه الأنوار على مختلف البلاد والأجيال .

ظهر منها :

١ نيتشه	بقلم فؤاد زكريا
٢ برتراند رسل	بقلم الدكتور زكى نجيب محمود
٣ برجسون	بقلم الدكتور زكريا إبراهيم

تحت الطبع :

٤ بسكال	بقلم الدكتور نجيب بلدى
٥ أفلاطون	بقلم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية ..

فمثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

١ — شجرة الكرز العجيبة .
٢ — رأس من طين .
٣ — هدية التنين .
٤ — حكم رادع .
٥ — الأصدقاء .
٦ — كلام بوذا .
٧ — الحماقات الثلاث .
٨ — الحبوب المقوية .
٩ — الملك شقرا .

مزينة بلوحات ملونة — ثمن النسخة ٥ قروش